كيف استقيم ؟

الجواب المبين في أهمية ووسائل

الاستقامة على الدين

رياض بن عبد الرحمن الحقيل

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا له إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء: ١].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد ... فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أخي القارئ الكريم ...

هذه رسالة صغيرة في حجمها، اسأل الله أن تكون عظيمة في نفعها، لطيفة في سبكها، تعالج موضوعًا خطيرًا، ومشكلة حساسة؛ ألا وهي: استمرارية العمل بعد المواسم والأماكن الفاضلة، وكذلك تتناول موضوع الاستقامة على الشرع في كل حين، ومع كل قوم،

وفي أي مكان؛ فكم نرى من الناس من يصلح حاله أيامًا وشـــهورًا بل وسنين، ثم لا يلبث قليلاً إلا وقد انقلب حاله، وتحولت حياته، نسأل الله الثبات!

وخاصة في مثل زماننا زمان الفتن، فتن الشهوات والشبهات، وكثرة المعوقات التي تصد المرء عن دينه! فكيف يثبت هذا علـــى دينه؟! وكيف يستقيم على شرع الله؟!

كذلك كم نرى من يعمل في رمضان، أو في الحج، فإذا انصرم الموسم ولى وترك العمل!

فما حكمه؟! وما حاله؟! وكيف السبيل لمواصلة العمل بعـــد الموسم؟!

كل هذا – حاولت قدر الطاقة – معالجته في هـــذه الرســـالة البسيطة المتواضعة [1]. نسأل الله أن ينفع بها، وأن يرزقنـــا الإخلاص والسداد في القول والعمل، وأن يثبتنا على دينـــه حـــتى نلقاه، وهو عنَّا راضٍ إنه سميع مجيب.

(١) أصل هذه الرسالة خطب وكلمات أُلقيت في أزمنة متعددة ... وكان الدافع للرسالة خطبة ألقيت في شهر شوال لعام ١٤١٠هـ حول هذا الموضوع، فرأى بعض الأخوة تدوينها في رسالة ليعم النفع بها ... ولعل القارئ الكريم يلاحظ أن أسلوبها وعظي أكثر منه علمي، وعذري في ذلك أنها تخاطب عامة المسلمين ... لذا وضعتها كما ألقيت تقريبًا مع بعض الزيادات والإضافات التي دعت إليها الحاجة؛ ليعم نفعها جميع الطبقات والله المستعان ...ولا أنسى تقديم شكري لمن ساعدني في كتابة ونسخ وتخريج بعض الآيات والأحاديث، ومن هؤلاء من قضى نحبه – رحمه الله – ونسأل الله أن يجعله من الشهداء، ومنهم من ينتظر، ونسأل الله لنا ولهم الثبات والاستقامة والإخلاص والسداد، فجزاهم الله خيرًا.

تمهيد

أخي القارئ الكريم ...

تمر علينا المواسم تلو المواسم، مواسم الخير والإيمان وزيادة الإحسان، مواسم الصيام والقيام، والإنفاق، والبر، والصلة، والحج، ونحوها كرمضان، والأشهر الحرم؛ بما فيها الحج، والجُمع، والأعياد، وعاشوراء، وغيرها من الأيام والشهور الفاضلة، والتي هي محطات للسمو الروحي والإيماني، وزيادة التعلق، والصلة بالحي القيوم، وكذلك نعيش في أماكن فاضلة تضاعف فيها الأجور والحسنات، في الحرمين، والمسجد الأقصى!

ونعيش أيضًا مع أناس صالحين عددًا من الأيام أو الساعات؛ فنشعر بارتفاع مستوى الإيمان لمصاحبتهم ورفقتهم [(١)].

أقول: نعيش وعشنا في مواسم وأزمنة وأماكن خيرة ومباركة، نرجو أن نكون ممن ربح فيها من الحسنات ... نسأل الله القبول.

وكذلك الحال حين نصاحب الصالحين من وقت لآخر؛ فكم أودعنا في أزمنة وأمكنة ومع أقوام من حسنات، نسأل الله القبول والتجاوز عمّا سلف من التقصير والتفريط.

---

(١) كما قال السلف: «اجلس بنا نؤمن ساعة» قاله معاذ كما في البخاري معلقًا. انظر: الفتح (١/٤٥) وقال ابن حجر: وصله أحمد وأبو بكر بسند صحيح «الفتح» (١/٤٨). وكما في حديث حنظلة «أنهم يزيد إيمانهم عند رسول الله ﷺ لما يسمعون من الخير والذكر» وهو بطوله في صحيح مسلم. انظر: مختصر مسلم برقم ١٨٨٧.

ولكن ماذا يكون بعد ذلك؟!

أتحصل المواصلة والاستمرار؟! أم هي مناسبات مرت وننساها بعد ذلك؟!

كم تكلم العلماء وطلبة العلم والخطباء، وتحدث الوعاظ، وحاضر المحاضرون في الخطب والدروس والمحاضرات والمنتديات عن أهمية المداومة على الأعمال الصالحة؟!!

وعن مواصلة العمل بعد العيش في المواسم الفاضلة كرمضان، والحج ونحوه، وبعد زيارة الأماكن الفاضلة ورفقة الصالحين — أيضًا - كما تحدثوا عن لزوم الاستمرار على الطاعات في رمضان وغير رمضان وفي الحرمين وغيرها!! ومع الناس أو في خلوتك.

فإن رب رمضان والحرمين هو رب الشهور والأماكن كلها؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا** ﴾ [التوبة: ٣٦].

نعم؛ نحن لا نطلب من أنفسنا أن نكون على نفس الوتيرة كما كنا في رمضان والحرمين وغيرها؛ فإن لرمضان نفحات إيمانية وجوًا خاصًا، وكذلك في الأمكنة الفاضلة، ومع الصالحين؛ لأن «**الذئب إنما يأكل القاصية**» كما صح عن المصطفى ﷺ [(١)]؛ ولكن على

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب ٤٧ برقم ٥٤٧ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٥١١. وفي صحيح الجامع برقم ٥٨٠١ عن أبي الدرداء قلت: «أي أن الذئب لا يستطيع أكل الغنم مجتمعة، ولكنه يستطيع أكل المنفردة ... وكذلك حال الشيطان مع ابن آدم».

الأقل أن نستمر على الواجبات وترك المحرمات، ونحرص على النوافل قدر الاستطاعة، وترك المكروهات كذلك، وأن نكون بعد المواسم في حال أحسن مما كنا فيه قبلها؛ فالعبد الصالح يومه خير من أمسه، وغده خير من يومه، وهذا من علامات قبول العمل كما قرَّر السلف، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

ونقل ابن القيم عن بعض السلف: «جزاء الحسنة الحسنة بعدها»[1].



(١) انظر: (الجواب الكافي) بتحقيق: عامر ياسين، ط. ابن خزيمة ص١٥٨، ١٥٩.

نقض الغزل

والحذر من نقض الغزل بعد غزله!!

أرأيتم لو أن امرأة غزلت غزلاً جميلاً، فلما أصبح قميصًا أو غطاءً، أعجب به الناس وفرحوا به، فلما فرحت به، وسرَّ به الناس؛ جعلت تنقضه خيطًا خيطًا دون سبب!! فماذا تقولون عنها؟! لا يشك عاقل أن في عقلها خللًا!! وفي تفكيرها نقصًا! ولهذا حذرنا الله – جل وعلا – بضربه هذا المثل لنا من نقض الغزل بعد غزله، وذلك بإبطال العمل وتركه بعد عمله، أو ارتكاب ما يخالفه، فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا** ﴾ [النحل: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٣].

سواءً بالرياء والسمعة، أو المعاصي والكبائر، أو النفاق أو نحوه [١]، أو بارتكاب ما ينقضها من نواقض الأعمال التي قد توصل إلى الردة والعياذ بالله [٢]. والعبرة بالخواتيم كما قال ﷺ: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[٣]؛ ولهذا أمرنا الله بالعمل حتى الممات، ولم يقل حتى ينتهي الزمان أو المكان؛ قال تعالى: ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ [الحجر: ٩٩].

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٧/٤١٢ فقد ذكر – رحمه الله – أقوال أهل العلم في تفسير الآية.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/١٩٥ (ط) دار المعرفة، وأنصح بقراءة رسالة: «محبطات الأعمال من القرآن وصحيح السنة» ط/دار ابن المبارك بالخبر. وكذلك «مبطلات الأعمال» للأخ الشيخ/ سليم الهلالي، ط. ابن القيم بالدمام.

(٣) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه مختصر مسلم برقم ١٩٤٨.

وقال: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ أي الزم الاستقامة حتى الممات.

المطلوب منا إذًا الاستقامة على الشرع في كل زمان ومكان، ومع أي قوم، لا نخص العمل الواجب ونترك المحرم في زمن دون آخر، ولا مكان دون غيره ولا مع قوم دون آخرين! فهذا أمر خطير وخطره جسيم، وقد يعرض العمل للحبوط أو النقص؛ لأن العبرة بالخواتيم، ولا ندري متى الخاتمة؟! وهل ندرك الموسم القادم أم لا؟! إن العمل مع أناس تظاهرًا بالصلاح ثم تركه، أو ارتكاب المعاصي في الخلوة والظهور أمام الناس بوجه وفي الخلوة بوجه، مع الإصرار على ذلك من الأمور التي قد تنسف الأعمال نسفًا فتذرها قاعًا صفصفًا! نسأل الله العافية.

ثبت في صحيح ابن ماجه عن ثوبان – رضي الله عنه – قال: قال ﷺ: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله – عز وجل – هباءً منثورًا**»، قال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا، جلّهم لنا ألا نكون منهم ونحن لا نعلم قال: «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) رواه ابن ماجه عن ثوبان برقم ٤٢٤٥ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٥٠٥، وانظر: صحيح ابن ماجه برقم ٣٤٢٣ له.

وما أجمل قول أبي العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل علـــيَّ رقيـــب
ولا تحســبن الله يغفـــل ســـاعة
ولا أن ما تخفـــي عليـــه يغيـــب
ألم تر أن اليوم أســـرع ذاهـــب
وأن غـــــدًا لنـــــاظره قريـــــب

وقال الأندلسي لابنه:

وإذا خلـــوت بريبـــة في ظلمـــة
والـــنفس داعيـــة إلى الطغيـــان
فاستحي من نظر الإله وقل لهـــا
إن الذي خلـــق الظـــلام يـــراني

فيجب علينا أن نتقي الله في أحوالنا، فنستقيم علـــى العبـــادة والطاعة في كل زمان ومكان، ومع كل قوم؛ فإن الله رب الأزمنة والأماكن والأشخاص[1].

(١) وإن كان جل وعلا يصطفى من الأماكن والأزمنة والناس ما يشاء سبحانه وتعالى، فيفضل بعضها على بعض هو ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ – سبحانه وتعالى –، ولكن العبادة المأمورين بها تلزمنا في كل حين وزمان، وإن كانت في الأزمنة والأماكن الفاضلة تضاعف قال ابن عباس عند قوله تعالى عن الأشهر الحرم: ﴿**فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**﴾ فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حرامًا، وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم، وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا؛ ولكن الله =

ولهذا أخي الكريم كانت هذه الرسالة المتواضعة!!

لما تقدم ذكره، ولما نراه من تدافع الناس على المساجد في رمضان، يصلون النوافل، ويذكرون الله، ويقرؤون القرآن، وإذا خرج رمضان نقضوا الغزل، وتركوا الطاعات؛ ليس النوافل فحسب؛ بل الفرائض (مع الأسف الشديد)، وعجيب أمرهم يحرصون على النافلة في زمن ويتركون الفرض في آخر، وكأن رب رمضان غير رب شوال وغيره! وصدق الفضيل بن عياض: «بئس القوم لا يعرفون الله إلا في رمضان» وكأنهم عباد رمضان عياذًا بالله، وهدانا الله وإياهم.

أقول: لهذا كله كانت هذه الرسالة؛ لأن ما تقدم من ملاحظات ظهرت وتفشت في المجتمع تدعونا للحديث عن علاج هذه الظاهرة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم السلف الصالح.

وتدعونا – أيضًا – لترسيخ وتثبيت مفاهيم كلمة جامعة مانعة هي العلاج لهذا كله هي من جوامع الكلم ... ألا وهي «الاستقامة».

=

يعظم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً، اصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل (تفسير ابن كثير ٣٦٩/٢).

وانظر: ما سطره الإمام ابن القيم رحمه الله في المجلد الأول من زاد الماد ص٤٢ إلى ص٦٥ حول هذا الموضوع المهم.

فما هي أهميتها؟! وأهمية العمل بها؟! وماذا يقصد بها؟! وما معناها؟! وما هي آثارها وفوائدها على الفرد والمجتمع في الدارين؟ وكيف فقه السلف ذلك عملاً لا علمًا فقط؟

ثم إن هناك سؤالا مهمًا يحتاج إلى إجابة أهم؛ ألا وهو ما يدور في أذهان الكثير من المسلمين وخاصة الشباب والفتيات:

كيف نحافظ على الإيمان؟! كيف نستمر على الطاعات؟! كيف نلزم جانب الاستقامة؟! ما هي العوامل المساعدة على ذلك؟! وما هي عوامل الثبات على دين الله حتى الممات؟!

سؤال مهم يسأله الكثير من الناس، لسان حالهم بل مقالهم: إني أعرف أهمية الاستقامة، وأعلم معناها، وما هي آثارها وفوائدها، ويكفي أن فيها النجاة والفوز في الدارين، أعلم ذلك كله ... ولكن ما العمل، وكيف السبيل إلى الاستقامة؟!

خاصة في زماننا زمان الفتن، فتن الشهوات والشبهات، فتن كقطع الليل المظلم كما أخبر المصطفى ﷺ؛ ففي صحيح مسلم: «**يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[1]. نسأل الله السلامة والعافية.

أخي القارئ الكريم ... حول هذه الأسئلة وتلك العناصر التي تجمعها كلمة «الاستقامة» سيكون بحثنا، وتكون مدارستنا – بإذن الله تعالى – والتي سميتها: «**الجواب المبين في أهمية وسائل الاستقامة على الدين**»؛ نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الذي لا إله

(١) مختصر مسلم برقم ٢٠٣٨ عن أبي هريرة.

إلا هو، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد- أن يرزقنا التوفيق لفهمها والعمل بها، كما نسأله الإخلاص والسداد في كل كلمة نقولها وعمل نعمله، وحسبنا إرادة الخير والحرص على سلوك وفهم منهج السلف الصالح في ذلك؛ فإن كان الصواب حليفي، فهو من الله وحده وتوفيقه، وإن كان الآخر فالله ورسوله منها بريئان [1] وهو من نفسي المقصرة والشيطان، وأستغفر الله من ذلك كله.

وهذا أوان الشروع في المقصود؛ فإن رأيت الخطأ والخلل فسدد وانصح وادع لأخيك الذي يحبك في الله ويدعو لنفسه ولك بالثبات على دين الله، وهذه بضاعتنا نسوقها إليك مزجاة، ونسأل الله أن يوف لنا الكيل وألا يجعلنا من الخاسرين.

وكتبه أبو مصعب

رياض بن عبد الرحمن الحقيل

الثقبة – جامع ابن حجر

في نهاية ١٢/١٤١٠هـ

---

(١) قال ابن مسعود رضي الله عنه: «فإن يك صوابًا فمن الله، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان والله – عز وجل – ورسوله بريئان» المسند للإمام أحمد ١٣٦/٦ برقم ٤٢٧٦ وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ج١ص١٣٦.

الاستقامة على دين الله
أهمية فهمها والعمل بها

كيف لا تكون مهمة وهي جماع الدين، كما قـــرر السـلف أجمعون [١] بل كما بينه المصطفى في جوابه للسائل عن قول جامع لأمر الدين، فقال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**».

كيف لا تكون مهمة وهي تعني الحفاظ على أهم ما نملكـــه، وأعز ما نحمله، وأجل ما نفخر به ونتشرف بحمله، ألا وهو دين الله رب العالمين، فحفظ الدين هو هويتنا بين الأمم، وهو شعارنا، هو علمنا، هو رمزنا، هو أمننا، هو رائدنا وإمامنا، فليس لنا هويـــة إلا هذا الدين، نفخر به ونعتز:

ومـمــا زادني تيهًــا وفخــرًا   وكدت بأخمصي أطــأ الثريــا
دخولي تحت قولك يا عبــادي   وأن صــيرت أحمــد لي نبيًــا

فلا نسب ولا جنس، ولا قومية، ولا مال، ولا جاه، ولا لون، وإنما هويتنا الإسلام [٢] والاستقامة عليه:

أبي الإسلام لا أبــا لي ســواه   إن افتخروا بقــيس أو تمــيم

---

(١) انظر: المدارج ٢/١٠٥، وجامع العلوم والحكم. بتحقيق الأرناؤوط ١/٥١٠. ط م الرسالة.

(٢) الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، والبعد عن المعاصي.

إن حفظ الدين مقدم على كل شيء، فكل شيء يضيع، وكل أمر يهلك في سبيل المحافظة على هذه الهوية، وهي الإسلام، فالولد، والمال، والزوج، بل والنفس نقدمها رخيصة في سبيل الله والحفاظ على دينه [١].

❋ ❋ ❋

(١) والأمثلة كثيرة للصحابة والسلف في فهمهم وتطبيقهم لهذا المعنى ... سيأتي معنا بعضها بعد ذكر الآثار والفوائد، وننصح بقراءة سير السلف، فهم أئمتنا وقدواتنا بعد رسول الله ﷺ: «فقراءة سير الصالحين أحب إلينا من كثير من الفقه» كما قال أبو حنيفة في ترتيب المدارك؛ لأن الله يقول: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**﴾ [الأنعام: ٩٠] ونقصد بالسلف: من كان على فهم ومنهج رسول الله ﷺ أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح.

الأدلة من الكتاب والسنة

وقد حث الله عليها في كتابه الكريم أمرًا مباشرًا وغير مباشر بها، أو بما يدل عليها ونهيًا عمّا سواها وضدها؛ قال تعالى آمرًا بالاستقامة: ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ [فصلت: ٦].

وقال في موضعين مادحًا المستقيمين، وهو خبر يفيد معنى الأمر أو في سياق الأمر، وهو أبلغ – قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت: ٣٠].

ثم مدحهم، وبيَّن ما أعده لهم من نعيم كما سيأتي.

وذكر في آيات كثيرة فلاح، وفوز، وصلاح، ونجاح المستقيم المصلح لنفسه، الحريص على تزكيتها، البعيد عن تدسيتها، وهي كثيرة في مواضع متعددة من القرآن الكريم؛ فمنها قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**﴾ [الأعلى: ١٤]. وقوله: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى**﴾ [الليل: ٥]... إلى غير ذلك من الآيات.

ونهى عما يخالفها وهو ضدها من الشرك، والبدع، والمعاصي، والروغان عن العبادة كما هو روغان الثعالب! والآيات في ذلك كثيرة معلومة أيضًا.

بل ويأمر نبيه محمدًا ﷺ بالاستقامة في أكثر من موضع، فيقول: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ [هود: ١١٢]. ولأهميتها وخطورتها وعظم أمرها تكون أشد آية على رسول الله ﷺ كما ورد عن ابن

عباس – رضي الله عنهما:«ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية»[(١)].

بل تكون سببًا لشيبه ﷺ حيث قال: «**شيّبتني هود وأخواتها قبل المشيب**»، وفي رواية: «**وأخواتها من المفصّل**»، وفي رواية: «**هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت**». حديث صحيح [(٢)].

قال بعض السلف: «لما في سورة هود من الأمر له بالاستقامة على الشرع»[(٣)].

وقال بعضهم: «بل لما في هود من قصص الأمم وهلاكهم، وما فعل الله بهم لما انحرفوا عن الاستقامة، ولما فيها من ذكر أهوال يوم القيامة»[(٤)].

ولكن لا يصح في ذلك شيء عنه ﷺ [(٥)].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٩/٢ طبعة دار التراث، وانظر: روح البيان للألوسي ١٥٢/١٢. والقرطبي ١٠٧/٩.

(٢) انظر: روايات الحديث وطرقه في السلسلة الصحيحة برقم ٩٥٩ وصحيح الجامع: ٣٧٢٠ – ٣٧٢١ – ٣٧٢٢ – ٣٧٢٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، بتحقيق الأرناؤوط ٥٠٩/١–٥١٠. وفي «روح المعاني» ٢٠٣/١١ أن البيهقي أخرج في «شعب الإيمان» عن أبي علي السري – رحمه الله – أنه رأى النبي في المنام وسأله عما شيبه من سورة هود، فقال: «**فاستقم كما أمرت**». وانظر: القرطبي ١٠٧/٩، والدر المنثور للسيوطي وهذا مما يستأنس به ولا يعتمد عليه ... فافهم – رحمك الله تعالى.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١/٩، ٢. والألوسي ٢٠٣/١١.

(٥) انظر: ضعيف الجامع برقم ٣٤١٧– ٣٤١٨ – ٣٤١٩ – ٣٤٢٠ والضعيفة ١٩٣٠ – ١٩٣١.

وقفة يسيرة للتأمل

أخي الحبيب ... تأمل معي ... وتدبر!!

الله – جل وعلا – يأمر نبيه ﷺ بالاستقامة، يؤمر بالاستقامة وهو من هو!! أتدري – أخي الحبيب – من هو محمد بن عبد الله ﷺ؟

إنه أعلم الخلق بالله، وأتقاهم له وأخشاهم له [(١)] وأخوفهم منه وأكثرهم رجاءً لما عنده، وأعظمهم حبًا له، هو المستقيم بل سيد المستقيمين، هو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر [(٢)]؛ هو أفضل من مشى على الأرض؛ بل أفضل الخلق عند الله، هو الشافع المشفع، ومع ذلك كله يؤمر بالاستقامة!! ومع ذلك تكون شديدة عليه!! ورغم ذلت تشيّبه ﷺ!!.

فماذا نقول نحن المقصرون؟! المفرطون؟! المهملون؟! المضيعون؟! إلا من رحم الله ... وفي زمان كزماننا زمان الفتن التي هي كقطع الليل المظلم، فتن الشهوات والشبهات، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يتولانا برحمته، وأن يعاملنا بما هو أهله، هو أهل الثناء والتقوى والمغفرة.

---

(١) قال ﷺ: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**». رواه البخاري عن عائشة برقم ٢٠ مع الفتح في كتاب الإيمان باب ١٣. وقال: «**فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**». رواه البخاري ٧٣٠١ مع الفتح، وانظر: المسند (٦//٦١-١٢٢) والصحيحة ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) كما في الحديث المتفق عليه: «**أتصنع هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ...» الحديث. رواه البخاري ٤٨٣٦ مع الفتح، ومسلم ٢٨١٩-٢٨٢٠.

فلأهمية الاستقامة وعظم شأنها وخطورة أمرها كان الموَّفق لها محصِّلاً لأعظم كرامة، كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[1]، وهذا يوجب علينا لزوم فهمها والعمل بها؛ لنحصل على الفوز والنجاة والفلاح، وننجو من الخسران في الدنيا والآخرة، وصدق الله: ﴿ **أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾. [الملك: ٢٢].



(١) مدارج السالكين ج١ص١١٠ دار الكتاب العالمية طبعة ١٤٠٨هـ. وصدق رحمه الله فأي كرامة أعظم وأجل من ثبات واستقامة العبد أمام الفتن والمغريات والشهوات والشبهات، وخاصة في مثل زماننا زمان الفتن وكثرة المعوقات! والله المستعان.

الأدلة من السنة

أما في سنة المصطفى ﷺ فقد حث عليها وأكد على ذلك؛ أمرًا مباشرًا تارة، وجوابًا للسائل لما سأله عن كلمة جامعة مانعة هي جماع الدين تارة أخرى؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك - وفي رواية: (بعدك) . قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[١].

فهذا القول الموجز المختصر المفيد جمع أمور الدين كلها، وشرح معنى الإسلام الحقيقي؛ ما المقصود منه! وما مفهومه!

وإذا بالجواب الواضح المنير من الذي لا ينطق عن الهوى؛ إن هو إلا وحي يوحى من صاحب جوامع الكلم؛ جواب جامع مانع؛ إنها إيمان صادق بالعقيدة، والعبادة، والمعاملة، والخلق، والسلوك الرباني النبوي الصحيح، ثم استقامة على ذلك حتى الممات.

إنها اعتقاد منهج السلف الصالح في العلم والعمل، ثم التزام به، وثبات واستقامة عليه، قال القاضي عياض - رحمه الله - : «هذا من جوامع كلامه ﷺ»[٢].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٣٨ط محمد فؤاد عبد الباقي ومختصر مسلم برقم ١٨ بتحقيق الألباني.

(٢) شرح مسلم للنووي ٢/٩.

وقال النووي: «هذا أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام»[١].

ويقول ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير** – وفي رواية: (أفضل) – **أعمالكم الصلاة ولا يحافظ** – وفي رواية: (ولن يحافظ) – **على الوضوء إلا مؤمن**»[٢].

وفي رواية: «**استقيموا تفلحوا**»[٣].

وقال ﷺ: «**استقيموا ونِعِمَّا إن استقمتم**»[٤]، ويقول – أيضًا – فيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يُدخل الجنة أحدًا عمله**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة! واعلموا أن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل**»[٥].

والتسديد هو: الاستقامة والإصابة. والمقاربة هي: القصد. كما سيأتي بيانه، وقال ﷺ موصيًا معاذًا: «**اعبد الله ولا تشرك به شيئًا.**

---

(١) دليل الفالحين ٢٨٤/١.

(٢) رواه أحمد وغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع ٩٥٢، وفي صحيح الترغيب ١٩٢-٣٧٢.

(٣) أخرجه أحمد ٢٠/٥ وإسناده صحيح كما قال الألباني في إرواء الغليل ٤١٢، انظر: المشكاة ٢٩٢.

(٤) صحيح الجامع عن عبادة بن الصامت ٩٥٣.

(٥) متفق عليه بألفاظ متقاربة وانظر روايات الحديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على الأعمال بأرقام ٦٤٦٣/٦٤٦٤/٦٤٦٧.

قال: يا نبي الله زدني. قال: **إذا سألت فأحسن**، قال: يـــا نـــبي الله زدني. قال: **استقم وليحسن خلقك للناس**»[١].

فهذه الأدلة من الكتاب العزيز وصحيح السنة وما ذكرناه من بيان لأهميتها تدلنا على عظم أمر الاستقامة وخطورة التهاون بهـــا والتسويف فيها أو إهمالها، اللهم ارزقنا الاستقامة علـــى شـــرعك، والثبات على دينك حتى الممات.



---

(١) انظر: صحيح الجامع ٩٥١، والصحيحة ١٢٢٨ عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما –.

تعريف الاستقامة

ما المقصود بها؟ وما معناها؟ وما هو مفهومها عند السلف - رضي الله عنهم؟

فهذه أقوال بعضهم في معنى وتفسير قوله تعالى: ﴿اسْتَقَامُوا﴾، ﴿اسْتَقِمْ﴾: إليكها فتدبرها، وافهمها للعلم والعمل بها:

١- قال صدِّيق هذه الأمة [(١)] أبو بكر ﷺ : «لم يشركوا به شيئًا، وعنه لم يلتفتوا إلى إله غيره».

٢- وقال فاروقها عمر ﷺ : «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب».

٣- وقال ذو النورين عثمان ﷺ: «أخلصوا العمل لله».

٤- وقال علي ﷺ : «أدّوا الفرائض».

٥- وقال حبرها وترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما: «استقاموا على أداء فرائضه».

---

(١) تعاريف السلف من الصحب والأتباع والأئمة للاستقامة كثيرة اكتفينا بالإشارة إلى بعضها خشية الإطالة، ولأن اختلاف عباراتهم هو اختلاف تنوع في الألفاظ لا تضاد، وإلا فالمعنى متقارب جدًا ومن أراد التوسع في معرفة أقوالهم فلينظر «الاستقامة» لابن تيمية/ مدارج السالكين لابن القيم ج٢ص١٠٣، «جامع العلوم والحكم» لابن رجب ١/٥٠٨: ٥١٢ ... ط مؤسسة الرسالة، وانظر: «دليل الفالحين» ١/٢٨٢ – ٢٨٦. «والمفردات» للراغب الأصفهاني، وتفسير القرطبي.

٦- وقال تلميذه مجاهد الذي قال عنه بعض الأئمة: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

٧- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: «استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة».

٨- قال ابن علان في دليل الفالحين: «وقال العلماء: معنى الاستقامة المطلوبة الممدوحة بالكتاب والسنة لزوم طاعة الله – تعالى – ويلزم من ذلك ترك منهياته، وهي من جوامع الكلم أن يكون اللفظ قليلاً والمعنى جزيلاً».

٩- قال ابن القيم – رحمه الله – ملخصًا ذلك كله بعد عرض أقوال السلف: «الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين كله، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد»[1].

---

(١) قلت: كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال: ﴿**فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾ [محمد: ٢١]. وقال ﷺ للرجل: «لئن صدقت الله ليصدقنك الله» (أي استقمت على ما قلت) وكان ذلك في غزوة أحد. وقال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ**﴾ ولهذا كانت مرتبة الصديق بعد مرتبة النبوة: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ [النساء: ٦٩]. وأخبر ﷺ أن الصدق يهدي إلى البر والجنة والاستقامة والصديقية كما جاء في الحديث المتفق عليه. نسأل الله أن يرزقنا الصدق والوفاء بعهدنا معه كما يحب ويرضى، إنه سميع مجيب.

وقال: «والاستقامة تتعلق بـــالأقوال والأفعـــال والأحـــوال والنيات؛ فالاستقامة فيهـــا: وقوعهـــا لله وبـــالله، وعلـــى أمـــر الله»[١].اهـــ.

الخلاصة:

فتبين مما سبق وتقدم من كلام السلف المشرق الواضح الـــنّير، الذين مدحهم ابن القيم والقحطاني بقولهما: «قال الصحابة هم أولو العرفان»، وهم: «أبرّ الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا وأقلـــها تكلفًـــا، كانوا على الهدي المستقيم» كما وصفهم ابن مسعود رضـــي الله عنهم.

أقول: تبين لنا أن المقصود لنا بالاستقامة: أن تســـتقيم قلبًـــا وقالبًا، علمًا وعملاً، منهجًا وغاية وطريقة على منـــهج الســـلف الصالح جملة وتفصيلاً في العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق والسلوك في الفهم ومنهج التلقي، وطريقة العمل وأسلوب التبليغ والدعوة؛ لا تلتفت يمنة ولا يسرة عن منهج الله – عز وجل ؛ لا لشرق وثـــني، ولا لغرب كافر:

ففكـــر الشـــرق يتعســـني وفكـــر الغـــرب يشـــقيني

لا لمبتدع ولا لزنديق ضال، ولا منحرف عن هـــذا المنـــهج السوي، وإن كثر أنصاره وأتباعه؛ (فالجماعة هي الحق وإن كنـــت وحدك). كما قال ابن مسعود، وهذا المنهج منهج أهـــل الســـنة

(١) انظر: المدارج٢/١٠٣.

والجماعة، الذي يجب أن نستقيم عليه علمًا وعملاً، ظاهرًا وباطنًا، هو منهج رسول الله ﷺ وصحابته.

هو منهج الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة [(١)]، الذي لا يقبل عند الله سواه، وما سواه فضلال وغيّ، قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧]. وفي حديث افتراق الأمة المشهور، قال ﷺ: «**كلها في النار إلا واحدة**». فلما سأله الصحابة عنها قال – محددًا المنهج -: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[(٢)]. أي مثل ما عليه الرسول وصحابته في العقيدة والفهم والعبادة والمعاملة والخلق والسلوك.

إذًا مفهوم الاستقامة: توحيد الله توحيدًا صادقًا كما وحده المصطفى ﷺ وعدم الإشراك به؛ توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، والثبات على كلمة التوحيد بعد فهمها فهمًا صحيحًا حتى الممات [(٣)].

مفهوم الاستقامة لزوم الأمر، واجتناب النهي، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، فلنلتزم الأوامر ونقول بلسان الحال والمقال: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» وننتهي عما نهى الله عنه

---

(١) لصاحب هذه السطور رسالة في صفات الطائفة المنصورة يسر الله إخراجها. ولأخينا الشيخ/ سليم الهلالي «اللآلئ المنثورة في صفات الطائفة المنصورة».

(٢) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، انظر: صحيح الجامع ٥٣٤٣، والمشكاة ١٧١.

(٣) لبيان معنى أنواع التوحيد الثلاثة: انظر رسالة سماحة الإمام عبد العزيز ابن باز – رحمه الله – «العقيدة الصحيحة وما يضادها».

ورسوله، وكل ذلك برضى وتسليم وانشراح صدر تام؛ قال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

مفهوم الاستقامة إخلاص العمل في ذلك كله له وحده ولا نشرك معه أحدًا.

مفهوم الاستقامة محبة الله محبة حقيقية، وذلك يستلزم الرجاء لما عنده، والخوف منه، وهذه صفات العبادة الحقة حب وخوف ورجاء [١]. وعبوديته عبودية صحيحة تستلزم الحب التام والخضوع التام مع الذل للمعبود.

والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة الخالصة لوجهه، الموافقة لسنة نبيه ﷺ، كما قرَّر العلماء [٢].

مفهوم الاستقامة أن تستمر وتثبت على ما اعتقدت وآمنت به وصدقت، وأن تحافظ على أعمالك الصالحة حتى الممات، فلا يكون هذا في زمن دون آخر ولا مكان دون غيره، ولا مع قوم دون آخرين.

---

(١) للعبادة شروط وأركان وصفات تكلم عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة «العبودية والإيمان» وغيرها انظر: مقتطفات من كتاب العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ط. دار ابن المبارك بالخبر.

(٢) انظر: «العبودية» لابن تيمية وغيره المرجع السابق ص١ و ٥٤. وانظر: «مجموعة التوحيد».

وإنما: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

إذًا فهي باختصار كلمة تعني: «جماع الدين كله».

تنبيه

ومن أهم ما ينبَّه إليه أن الاستقامة هي سلوك صراط الله المستقيم في كل أمر علمي وعملي، وصراط الله – كما قرَّر السلف أجمعون: وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم دون غلو ولا جفو، لا إفراط ولا تفريط، لا تساهل ولا تشدد، كما في الحديث الصحيح قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»(١).

يقول فضيلة شيخنا الشيخ صالح الفوزان: «الاستقامة هي: سلوك الصراط المستقيم من غير تعوج عنه يمنةً ولا يَسْرةً؛ بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص منه؛ فلا يشدِّد ولا يتساهل؛ فإن الشيطان يشم قلب العبد رغبة في التساهل والتكاسل حتى يتحلل من الدين؛ فيترك الواجبات؛ ويفعل المحرمات، ولا يزال يغريه حتى يقطع صلته بالدين

---

(١) انظر: الصحيحة ١٢٨٣، وصححه النووي في المجموع ٨/١٧١، وكذا ابن تيمية في الاقتضاء ج١ص٢٩٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما تحقيق د. ناصر عبد الكريم العقل (ط) مكتبة الرشد بالرياض.

ويتركه في متاهات الهلاك[١]. وإن رأى من العبد حرصًا على الدين فلم يتمكن من صدِّه عنه أمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاعتدال، قائلاً له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم؛ فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاستقامة، وهذا كحال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وكلا الطرفين ذميم؛ طرف التساهل وطرف الغلو، كلاهم خروج عن السنة والاستقامة؛ فالأول خروج إلى بدعة التفريط والإضاعة والثاني خروج إلى بدعة المجاوزة والإسراف! قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر زيادة أو نقصان؛ فكل الخير في الاجتهاد المقرون بالاعتدال والسير على السنة، وكل الشر في الخروج عن السنة عن طريق التساهل أو عن طريق الغلو». اهـ.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ**﴾ [الحشر: ١٦]. وذكر ابن القيم مراتب إغواء الشيطان لابن آدم السبعة. فيأتيه بالشرك، فإن لم يفلح معه فالبدعة، وإلا فالكبيرة، وإلا فالصغيرة، وإلا شغله بالإسراف في المباحات ليشغله عن الطاعة، وإلا بالمفضول عن الفاضل، وآخرها يسلط عليه شياطين الإنس والجن. ولا يزال معه يحاول ويصول ويجول والمعصوم من عصمة الله نسأل الله الثبات. انظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي ومختصره الجيد «المنتقى النفيس». وكذلك «إغاثة اللهفان» لابن القيم وغيرها.

وقال أيضًا عن طريق الاستقامة: «إنه لا غلو ولا تشـــديد ولا تنطع في الدين؛ بحيث تجعل الســـنة كـــالفرائض، والمكروهـــات كالمحرمات، وتحرم النفوس مما أباح الله من زينة الله الـــتي أخـــرج لعباده والطيبات من الرزق».

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيـــوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأهم تقالُّوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه ومـــا تـــأخَّر. قـــال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصوم الـــدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا!! أما والله إني لأخشـــاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي، وأرقد وأتزوج النســـاء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1] اهـــ كلامه حفظه الله.

وصدق عليه الصلاة والسلام: «**سيشدَّد هذا الدين برجـــال ليس لهم عند الله خلاق**»[2]، وقال ﷺ: «**إن هذا الدين يسر ولن يشادّ هذا الدين أحد إلا غلبه، فســـددوا وقـــاربوا وأبشـــروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**»[3].

(١) انظر: خطب الشيخ الفوزان بشيء من التصرف، والحديث ثابت في الصحيحين عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – انظر: «مختصر مسلم» بتحقيق الألباني ٧٩٥.

(٢) انظر: صحيح الجامع ٣٦٥٦، وانظر: الصحيحة ١٦٤٩ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة وفي رواية النسائي (وبشروا ويسروا)، انظر: الصحيحة ١١٦١.

والسلف الصالح وأتباعهم وسط في جميع أمورهم؛ فلا تنطع ولا تكلف لم يأمر الله به، ولا تساهل وتهاون؛ إنما هي وسط في الأمور الاعتقادية، والتعبدية، والخلقية، والسلوكية، وفي المعاملات وغير ذلك.

ولكن ما هو ميزان الغلو؟

أهو تساهل المتساهلين! أم كتابة الجهلة من الصحفيين الذين لا علم لهم بالدين! أم فتاوى الملفقين والمتساهلين الذين يبحثون عن الرخص فقط! فيعتبرون الحجاب، واللحية، وتطبيق سنة رسول الله ﷺ غلوًا ... الجواب: لا ... !! إن الميزان هو ما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ على فهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى:

فالعلم قال الله قال رسوله
قال الصحابة هم أولو العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة
بين الرسول وبين قول فلان

فليتنبه لهذا، وإنما الرخصة هي ما كانت بدليل صحيح صريح من الوحي، وليس على ما يشتهيه الناس، وذلك بالرجوع إلى العلماء الثقات من علماء السنة والأتباع؛ لا البدعة والتلفيق، كما قال تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣].

علامة على الطريق:

وهناك علامة من العلامات المهمة ... وإلا فهي كثيرة تـــدل على استقامة العبد ... فحري أن ننتبه إليها ... وننظر إلى أنفسنا!! أين نحن منها؟!

ألا وهي حفظ اللسان من آفاته، واشتغاله فيما يرضى الله، فهو دليل استقامة القلب، واستقامة القلب دليل استقامة الإيمان: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالاستقامة حثّ على حفظ اللسان؛ فقد روي في المسند عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»[١].

وعند الترمذي مرفوعًا عن أبي سعيد قـــال: قـــال ﷺ: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تَكْفُرُ اللسانَ؛ فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن اســتقمت اســتقمنا، وإن اعوججــت اعوججنا**»[٢]. ومعنى تَكْفُرُ: أي تَذِلُّ وتخضع له.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣/٢٥٠ ورقمه ١٣٥٣٢ ط المكتب الإسلامي ط١٤١٣هـ ورقمه في ط.م الرسالة المسند تحقيق شعيب الأرناؤوط ١٣٠٤٨ج ٢٠/٣٤٣ وقال: إسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة، وضعفه غير واحد، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٩) ولكنه حسنه محقق «الجواب الكافي» الأخ/ عامر ياسين، وقال: إنه حديث حسن بمجموع شواهده — إن شاء الله — والله أعلم، انظر: الجواب الكافي ص٣٧٩.

(٢) انظر: صحيح الترمذي برقم ١٩٦٢، وصحيح الجامع برقم ٣٤٨، والمشكاة برقم ٤٨٣٨.

فيجب مراعاة هذه العلامة وهذا الدليل!! فلا ينطق بمحرم ويجتنب اللغو، وقول الزور، ويحذر من آفات اللسان كلها [1].

وننبه إلى أن السكوت عن الحق من آفات اللسان كما قال ﷺ: «**لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه [أو شهده أو سمعه]**» "رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وهو في السلسلة الصحيحة برقم ١٦٨".

وقد عنون له الشيخ الألباني – رحمه الله -: التحذير من ترك كلمة الحق، وقال معلقًا: وفي الحديث النهي المؤكد عن كتمان الحق خوفًا من الناس، أو طمعًا في المعاش!!

فيجب أن ينكر المنكر، ويأمر بالمعروف، ويدعو إلى الله، وينصح ويرشد ويُعمل لسانه في الطاعات من ذكر، وتسبيح، وتهليل شرعي.

لتكون هذه الأمور دليلاً على استقامة القلب، ومن ثم الإيمان بعد إخلاصه لله – عز وجل.

تساؤل مهم!!

هل معنى الاستقامة أن أكون كاملاً على الصواب مطلقًا في جميع أعمالي؛ فلا يقع مني خطأٌ ولا تقصير؟!

---

(١) الكتب كثيرة في آفات وخطايا اللسان وأوصلها بضعهم إلى عشرين آفة. انظر: «آفات اللسان» للمشوقي بل ذكر بعضهم: أنها ثلاثة وثلاثين آفة كما في كتاب «أفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة» د. سعيد بن وهف القحطاني، وانظر في خطورة اللسان كلام ابن القيم في الجواب الكافي ص٣٧٩.

نقول: هذا أمر مستحيل، وغير مستطاع؛ فقد ثبت عنه ﷺ قوله: «**كُلُّ ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[(١)].

ولهذا يأمرنا الله بالاستغفار بعد أمره إيانا بالاستقامة؛ قال تعالى: ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ [فصلت: ٦]؛

ففيها إشارة إلى أنه لا بد من التقصير وجبرانه بالاستغفار والتوبة.

ولهذا شرع لنا الاستغفار بعد الصلاة وغيرها من الأعمال؛ لأنه لا بد أن يقع سهو وتقصير وتفريط من العبد، وهذا – أي الاستغفار – من فضل الله علينا ورحمته بنا، ومما يوضح ذلك قوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[(٢)]؛ فبعد أن وصى معاذاً بالتقوى، والتزام الشرع، أشار إلى أنه لا بد من وقوع الخطأ والتقصير، فما العمل؟! العمل أن نتوب إلى الله ونُتْبِعَ السيئة حسنة لتكفرها، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠١]؛

أي أبصروا طريق التوبة والإنابة والاستغفار؛ بل ويوضح هذا جليًا قوله – تعالى – مبينًا إيمان الرسول ﷺ والمؤمنين واستقامتهم على ما آمنوا به، ولكن – مع ذلك – طلبوا المغفرة لما قد يقع بل

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن أنس كما في صحيح الجامع برقم ٤٥١٥ المشكاة برقم ٢٣٤١.

(٢) صحيح الجامع برقم ٩٧ من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه –.

يقع من تقصير، قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد أشار المصطفى ﷺ بعد أمره الناس بالاستقامة إلى أنهم لا يطيقون الاستقامة الكاملة كما في حديث ثوبان: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**». وفي رواية لأحمد: «**استقيموا ولن تطيقوا**». وفي حديث أبي هريرة: «**سدّدوا وقاربوا ...**»(١).

فالمطلوب السداد – وهو: الإصابة والاستقامة – يقال: سددت الرمية في الهدف إذا أصبته؛ فالسداد هو حقيقة الاستقامة الكاملة المطلوب السعي إليها قدر المستطاع، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد؛ فإن لم تستطع فالمقاربة؛ كما قال: «وقاربوا». والمقاربة هي القصد وهي إصابة الغرض؛ فهي عزم للوصول إلى التسديد فإن لم يصل فحسبه صدق نيته وعزيمته وقصده، ولهذا قال في نهاية حديث أبي هريرة السابق: «والقصد القصد حتى تبلغوا»(٢).

---

(١) متفق عليه. انظر:صحيح البخاري ٥٦٧٣ عن أبي هريرة – رضي الله عنه –، مختصر صحيح مسلم ١٩٢٧، وانظر: صحيح الجامع برقم ٣٦٢٧.

(٢) رواه البخاري ومسلم المرجع السابق وانظر: للبسط جامع العلوم والحكم ٥١١/١، وانظر: خطب الشيخ الفوزان ٢٢٤/١، ودليل الفالحين ٢٨٢/١-٢٨٦،ومدارج السالكين ١٠٣/٢.

فالمطلوب الحرص على السداد كما قال: «سـددوا»؛ وهـو الإصابة والاستقامة الكاملة؛ فإن لم يحصل فالمقاربة مع النية الصادقة والعزم للوصول إلى السداد، وإلا فليس بعدها إلا التفريط والضياع والهلاك، نسأل الله السلامة والعافية.

المحروم من الحوض

ومما يجدر التنبيه إليه إضافة إلى ما سبق ذكره أن الابتـداع في الدين والإحداث فيه من أعظم الأمور المخالفة للاستقامة؛ سـواء البدعة في العقيدة – وهي أخطرها وأعظمها – أو العبادة؛ سواء في أصلها أو وصفها؛ فكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، «**ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[1].

والبدعة هي: الطريقة المخترعة في الدين تضـاهي الشـريعة يقصد بها التقرب إلى الله ولم يقم على صحتها دليل شرعي صحيح أصلاً أو وصفًا [2].

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها انظر: صحيح البخاري ٢٦٩٧، صحيح مسلم ١٧١٨، وانظر: «جامع العلوم والحكم» الحديث الخامس.

(٢) انظر: رسالة البدعة وأثرها السيئ على الأمة، للهلالي، فقد نقل هذا التعريف عن الشاطبي في «الاعتصام» ١/٣٧ ومن أراد التوسع فننصحه بـ«الاعتصام للشاطبي»، و«الابداع في مضار الابتداع» لعلي محفوظ، و«السنن والمبتدعات»، للشقيري.

ويكفي في عظم وخطورة هذا الأمر: أن المبتدع في حقيقة أمره ولسان حاله متهم لرسول الله ﷺ بالخيانة كما قال مالك إمام دار الهجرة: من ابتدع في الإسلام بدعة يرى أنها حسنة، فقد زعم أن محمدًا قد خان الرسالة، ثم قال بعد أن ذكر آية المائدة: فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا. اهـ؛ لأن الدين قد كمل، والشرع قد تم؛ فمن ابتدع وزاد في الدين فقد اتهم الرسول بعدم التبليغ؛ لأن الله يقول: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: ٣].

ويقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: ٦٧].

ولو علم المبتدعة هذا وفهموه لكفوا عن بدعهم، والله المستعان، والمبتدع محروم من حوض المصطفى ﷺ كما في أحاديث الحوض والشرب منه، عندما يُرَدُّ أقوام عن الحوض، ويسأل المصطفى ربه – عز وجل -: «**يا رب أمتي أمتي**» وفي رواية: «**أصحابي**» فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك فيقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي [(١)].

فالبدعة خطرها عظيم وأثرها على الأمة جسيم، عافانا الله منها أجمعين، وقد كتب علماؤنا – رحمهم الله – الكثير الكثير عن البدعة ومعناها، وأدلة تحريمها، وخطورة أمر المبتدع، وعاقبته

(١) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ، وانظر: روايات الحديث في صحيح مسلم مع شرحه للنووي ج١٥/٥٨-٧٢ ط. دار المعارف بالرياض.

السيئة، ويكفي أن عمله مردود عليه، وأنه يحمل إثم كل من تبعه، وحرمانه من الحوض، وعدم قبول توبته ما لم يرجع، وأنه ملعون على لسان رسول الله ﷺ وغير ذلك، وكتبوا عن المبتدعة وأحكامهم وعن البدع القديمة والمعاصرة، فنكتفي بما ذكروه – رحمهم الله – ونرشد المسلم المبتدئ إلى قراءة ما كتبه الأخ الشيخ/ سليم الهلالي في رسالته الميسرة لكل قارئ: «البدعة وأثرها السيئ في الأمة»، فقد ذكر تعريفها، وحكمها، ورد على بعض الشبهات، وأجاب عنها، وبيَّن وجوب معرفة البدع، وأسباب الابتداع، وخطورتها، وكيف نتعامل مع أهلها، فجزاه الله خيرًا.



فوائد الاستقامة وآثارها في الدارين

فوائدها كثيرة عديدة، نكتفي بذكر خمسة منها خشية الإطالة؛ فمنها فوائد عاجلة في الدنيا، وأخرى في الآخرة، ومنها ما هو عند الممات، نسأل الله حسن الخاتمة.

ونقدم الدنيوية؛ لأن النفس جبلت على حب العاجل كما ذكر ابن القيم: والنفس مجبولة على حب العاجل [(١)].

أولاً: الحياة الطيبة [(٢)]:

وما أدراك ما الحياة الطيبة؟! إنها السعادة الحقيقية لا الوهمية، إنها سعادة الروح، وصفاء النفس، والأمن في النفس والأهل والمجتمع؛ قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾. [الأنعام: ٨٢].

إن كثيرًا من الناس ذهب ذات اليمين والشمال باحثًا عن السعادة! أنفق الأموال وضحى بحياته بل وباع أهله وكل ما يملك!! ينشد السعادة فلم يجدها! بحث عنها في الحلال والحرام، بحث عنها في المال، في الشهرة، في المسكرات والمخدرات، في الزنا واللواط والسحاق، في القصور الفاخرة والسيارات الفارهة!! فهل وجدها؟!

---

(١) زاد المعاد في المجلد الثالث ١٥/٣ ط.م الرسالة. بلفظ: والنفوس موكلة بحب العاجل.

(٢) للإمام الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رسالة قيمة بعنوان: «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» فلتنظر.

وكم جلسنا مع أمثال هؤلاء، فنسأله: لماذا كل هذا؟!

يقولون بحثًا عن السعادة!

أقول لهؤلاء: ماذا عملت من أجل ذلك؟!

يقول: إنه باع أهله، وطلق زوجه، وترك أولاده، ودخل في عالم بل جحيم المخدرات والمسكرات بحثًا عن السعادة، والحياة الطيبة الوهمية كما يظن، ولكنه لم يجدها!!! ولم يحصل عليها!!! كما اعترف لي الكثيرون بذلك! أحدهم أنفق الملايين على زواجه، وأحضر الطعام بالطائرات من الخارج وأمات [1] ليلته بالمغنيين والمغنيات في ليلة زفافه، ولكنه لم يسعد في زواجه؛ بل طلق زوجته بعد مدة يسيرة!!! والأمثلة كثيرة جدًا!!

فهل وجدوا السعادة؟! والجواب معروف عندك – أخي القارئ – جيدًا؛ وما أحسن قول الشاعر:

ولست أرى السعادة جمع مال

ولكن التقي هو السعيد

السعادة كل السعادة، والحياة الطيبة في طاعة الله – عز وجل، ومن ذاق عرف، ومن جرب طعم الطاعة وحلاوة الإيمان علم ذلك جيدًا!

---

(١) تعبر كثير من المجلات والجرائد بأن المطرف الفلاني والمغني الفلاني أحيى ليلة كذا وكذا بأغنية ونحوه، وهذه في الحقيقة (إماته) وليس إحياء!!

واقرأ معي – أخي الحبيب – هذه الآيات بتدبر وتمهل وتمعن وخشوع وتعقل لمعانيها، قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل: ٩٧].

إذًا: إيمان صادق + عمل صالح = حياة سعيدة طيبة!

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ أي: لما فيه حياتكم وسعادتكم الحقيقية، ولا يكون ذلك إلا بالاستجابة لأمر الله ورسوله [(١)]، بل من أعرض عن ذلك فليس بحي؛ بل هو ميت وإن لبس الثياب، وركب السيارات، ومشى على الأرض!

قال تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾؛ أي: بالقرآن والسنة والطاعة ونور الإيمان، ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فهذه الروح لا بد لها من غذاء، وغذاؤها القرآن،

---

(١) قيل: إن معنى الحياة في الآية هي القرآن، وقيل الجهاد، وقيل العلم، وقيل الإيمان، وقيل غير ذلك، ومما يدل على أن السعادة والحياة الطيبة في الجهاد الآيات والأحاديث وأقاويل السلف الكثيرة المبينة أن السعادة العظيمة تجدها في الجهاد بأنواعه بالنفس والمال واللسان والدعوة والأمر والنهي قال ﷺ: «**عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنه باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم**» السلسلة الصحيحة ج٤ رقم الحديث ١٩٤١، صحيح الجامع رقم ٤٠٦٣.

وانظر: الفوائد ص١١٥ لابن القيم – رحمه الله – فقد نصر هذا القول وقال: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ... ثم قال بعد ذكر أقوال السلف إن الآية تتناول هذا كله ... ثم فصل ووضح معنى الحياة الحقيقية الطيبة فلينظر ص١١٦-١١٧.

ولذا سماه الله روحًا، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]، ولا بد لها من نور تهتدي بــه وتســعد وتسمو، ولهذا وصفه الله بقوله: ﴿**نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾ [المائــدة: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْــقَى**﴾ [طه: ١٢٣]، قال ابن عباس: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل به أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة». وقال تعالى: ﴿**فَمَـــنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْــلَامِ**﴾ [الأنعــام: ١٢٥]؛ فالمستقيم منشرح الصدر مهما كان فقره، ومهما قلَّــت معيشــته وموارده، فسعادته في قلبه السليم، وصدره المنشرح، وهذا يعــدل الدنيا كلها بل أكثر؛ ولهذا يقول المصطفى ﷺ عن المؤمن: «**مــن أمسى آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومــه فكأنمــا حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[1]، وهذه القناعة لا تكــون إلا عنــد صاحب الإيمان المستقيم على شرع الرحمن؛ بخلاف غيره صــاحب الجشع والطمع، ولهذا أهل الاستقامة يعيشون في نعمــة عظيمــة وسعادة جليلة يعبر أحدهم عنها بقوله: «نحن في نعمة لو علم بهــا الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف»، ويقول الآخر: «لئن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه، إنهم لفي خير عظيم». والآخر: «يبكي فرحًا لما هو فيه من سنة وترك للبدعة»[2].

هجم السرور علي حتى أنــه   من فرط ما قد سرني أبكــاني

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧)، وقال حديث حسن. ووافقه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (١٩١٣) من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي.

(٢) وانظر قصصهم في: «روضة المحبين، والمدارج». لابن القيم – رحمه الله –.

وما أجمل تلك العبارات السلفية التي صدرت من التابعي الزاهد العابد التقي الحسن البصري – رحمه الله – الذي قيل: إن كلامه يشبه كلام الأنبياء، عندما قرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣]؛ أي استقام على الإيمان والعمل الصالح. قال الحسن البصري رحمه الله: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة خلق الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين. هذا خليفة الله»(١)؛ فهو ولي الله كما قال تعالى: ﴿**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [فصلت: ٣١]، وما أدرك من هو ولي الله؟! يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه – جل وعلا: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»(٢). فماذا تريد بعد ذلك؟! ولا تعليق على هذه الكلمات النيّرة في وصف المستقيم على شرع الله الداعي إليه؛ ولكن من هو الولي! قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. نسأل الله من فضله (٣).

---

(١) رواه عنه عبد الرزاق في المصنف، ونقله عنه ابن كثير ٤/١٠١.

(٢) رواه البخاري انظر مختصر صحيح للزبيدي برقم ٢١١٧، وانظر شرحه في كتاب «جامع العلوم والحكم» ص٣٣٠ تحقيق شعيب الأرناؤوط طبعة مؤسسة الرسالة، والفتاوى لابن تيمية ١١/١٩٤-٢١٨ و ١٧/٣٣٠-٣٩٠.

(٣) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية.

ثانيًا: حفظ الله للعبد وماله وأهله وسعة الرزق:

وذلك للمستقيم وأهله وولده وماله، كما قال ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**»[1].

احفظ الله بالتزام شرعه وأوامره والاستقامة على دينه، يحفظك في الدنيا والآخرة ويحفظ أهلك وذريتك ومالك؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحج: ٣٨].

وقال في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**».

وقال ﷺ: «**من صلى الفجر فهو في ذمة الله**». [رواه مسلم]، وفي رواية: «**من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله**»[2]؛ فأي جوائز أعظم من هذا؟!

وكم وكم من الصالحين من حفظ الله له جوارحه وأعضاءه في كبره؛ لأنه حفظها في الصغر عن المحارم.

وكم قال بعضهم – وقد تجاوز المائة من عمره، وهو نشيط في عقله وبدنه؛ حتى قفز ذات مرة من السفينة قفزة لا يستطيعها الشباب: «تلك جوارح حفظناها في الصغر؛ فحفظها الله لنا في الكبر»[3].

---

(١) رواه الترمذي وغيره انظر: صحيح الترمذي ٢٠٤٣، وانظر صحيح الجامع رقم ٧٩٥٧.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم ٤١٥.

(٣) قالها الإمام أبو الطيب الطبري الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠هـ والقصة ذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٤٦٦/١ وابن كثير في البداية والنهاية ٧٩/١٢ – ٨٠ط. ١٤٠٥/ بيروت.

والجزاء من جنس العمل: «**اعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به**»[(١)]، وأما حفظ المال والولد والذرية فيكفي فيها قوله تعالى: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾ [النساء: ٩]؛ فليس عليهم الرّزق ولا التكفل بهم، وإنما تقوى الله والقول السديد المستقيم الذي هو علامة للقلب والإيمان المستقيم كما تقدم.

ولعلك – أخي القارئ – تحفظ أو تقرأ سورة الكهف خاصة يوم الجمعة؛ فتقرأ فيها حفظ الله لكنز الرجل الذي تحت الجدار، وذلك بإرسال العبد الصالح الخضر – عليه السلام – لبناء الجدار ليحفظ الله كنز الرجل وماله لأولاده من بعده.

فما هو السبب بعد فضل الله؟ قال تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ [الكهف: ٨٢].

إذًا صلاح الأب كان سببًا في حفظ المال لأولاده، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما صحَّ عنه؛ فلا تأمينات على الحياة أو العقار أو الأولاد، ولا وضع للمال في البنوك الربوية بحجة الخوف على مستقبل الأولاد، ولا تضييع للصلوات والطاعات والانشغال عنها بالعقارات والبيع والشراء للحجة السابقة؛ لأن الله يرزقك وإياهم والعاقبة للتقوى، جعلنا الله من المتقين المستقيمين على شرعه، وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ**

---

(١) قطعة من حديث رواه الحاكم وصححه الذهبي وغيره عن سهل بن سعد من كلام جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ، وانظر: الصحيحة ٨٣١، وصحيح الجامع ٧٣.

بالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن: ١٦]؛ أي لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها لأسقيناهم ماءً غدقًا؛ أي كثيرًا، والمراد بذلك سعة الرزق [١]، والمقصود بالاستقامة الطاعة والإسلام وطريق الحق كما قال أئمة التفسير.

ثالثًا: البشارة والتطمين ومغفرة الذنوب:

وذلك بحسن الخاتمة عند الوفاة والممات؛ فالفاجر والفاسق والكافر يكون نزع روحه شديد، كما أخبر المصطفى ﷺ كنزع الشوك من الصوف المبلول، وسكرات الموت عليه عظيمة، تبشره الملائكة بالعذاب فيجتمع عليه الأذى والعذاب الحسي والمعنوي [٢].

أما المستقيم على شرع الله ...

فتأتيه الملائكة أن لا تحزن على ما مضى ولا تحزن على أولادك وأهلك ومالك، فالله سيحفظهم؛ ولا تخف على ما يأتيك ويستقبلك من أحوال سواء في القبر أو بعده، ثم تبشره بجنة عرضة السماوات والأرض [٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٤ص٤٥٩، ٤٦٠.

(٢) كما في حديث البراء ابن عازب الصحيح الذي رواه أحمد في المسند ٢٨٧/٤ وصححه الذهبي وابن القيم والألباني انظر:أحكام الجنائزص١٥٩ (ط) المكتب الإسلامي.

(٣) كما في حديث البراء السابق.

فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين!! وتخبره أن له ما يشتهي ويريد فيها؛ لأن الله وعده بذلك.

وكل هذا كرم وفضل وضيافة من الله الغفور الرحيم، وتأمل معي قوله تعالى في وصف هذا المشهد العظيم، الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويلين القلب القاسي، ويهد ويحطم الجبال الرواسي: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

رابعًا: المرور السريع على الصراط:

والصراط المنصوب يوم القيامة على جسر جهنم أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف؛ فمن الناس من يمر عليه كالبرق، ومنهم كالفرس السريع، ومنهم من يمر عدوا ومنهم هرولة، ومنهم من يمشي، ومنهم من يحبو، ومنهم من تتخطفه الكلاليب ذات اليمين والشمال؛ كلاليب كشوك السعدان فتقذفه في جهنم – عياذًا بالله – نسأل الله السلامة والنجاة من النار [(١)].

---

(١) جزء من حديث طويل متفق عليه أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ**﴾ ١٨١/٨، ومسلم في كتاب الإيمان معرفة طريق الرؤية ١١٥/١.

ولكن المستقيم شأنه آخر ... سلك صراط ربه المستقيم واتبعه وامتثل قول الله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فسيكون مروره – بإذن ربه – على الصراط مرور الكرام كالبرق ونحوه، على قدر استقامته، والجزاء من جنس العمل، كما تدين تدان، اعمل ما شئت فإنك مجزي به؛ فلله صراطان: معنوي في الدنيا، والصراط المستقيم في الآخرة ... من سلك الأول وثبت عليه سهل الله مروره على الثاني يوم القيامة، كما قال السلف، ونقله ابن القيم – رحمه الله تعالى –[1].

ولهذا قال – صلى الله عليه وآله وسلم: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتعوجوا، وداع يدعو فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال له: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه،**

(١) انظر: المدارج ج١ص١٦ط. دار الكتب العلمية لبنان. فقد قال رحمه الله: «فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على الصراط، فمنهم من يمر كالبرق ...» إلخ كلامه – رحمه الله.

فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتـــاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم»(١).

خامسًا: الفوز بالجنة والنجاة من النار:

وما أدراك ما الفوز بالجنة! بعض الناس يخاف أن يفوته شـــيء من متاع الدنيا! متاع الغرور! من منصب، أو جاه، أو مـــال، أو ولد، ونحو ذلك، فيذهب وقته وجهده، بل وعمره، للحصول على شيء منها وهي لا تعدل عند الله جناح بعوضـــة!! كمـــا قـــال المصطفى ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة مـــا سقى كافرًا منها شربة ماء**»(٢).

فنذكر أنفسنا وهؤلاء الذين يخافون فوات مثل هذه الأمـــور بسبب استقامتهم (٣) بقوله تعالى – مبينًا معنى الفـــوز العظـــيم –: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ**

---

(١) رواه أحمد وغيره عن النواس بن سمعان صحيح الجامع ٣٨٨٧.

(٢) انظر: صحيح الجامع ٥٢٩٢، والصحيحة ٩٤٣.

(٣) مع أنه كم من مستقيم حصل على هذه الأمور دون طلبها وأتته الدنيا وهي راغمة، كما في الحديث الصحيح: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**». صحيح الجامع ٦٥١٠ عن أنس والصحيحة (٩٤٩/٩٥٠). وليس معنى أن تكون الآخرة همك أن تترك العمل وطلب الرزق ... إنما المقصود أن تعمل، ولكن لا تجعل الدنيا همك، فلا تفرح بما جاء، ولا تحزن على ما فات، وتكون في طلبك وعملك للآخرة أحرص منه على دنياك، والله المستعان.

زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومهما كان العبد المستقيم في ضنك، وشدة، وضيق؛ بل لو عاش حياته كلها في ظاهرها الشقاء المادي؛ من قلة في المال والرزق والولد ونحوه؛ بل حتى لو عُذِّبَ واضطهد وسجن وقتل وشرد، فإن غمسه في الجنة تنسيه كل ما فات! قال ﷺ: «**يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة فيقول: اصبغوه صبغة في الجنة. فيصبغونه فيها صبغة، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم: هل رأيت بؤسًا قط أو شيئًا تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك، ما رأيت شيئًا أكرهه قط. ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار فيقول: اصبغوه فيها صبغة. فيقول: يا ابن آدم: هل رأيت خيرًا قط، قرة عين قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيرًا قط، ولا قرة عين قط**»[1].

فإذا كانت غمسة واحدة في الجنة تكفي لإزالة كل ما عاشه من هم وضيق وشدة وفقر، فكيف بالخلود فيها؟ بل كيف برؤية الله — عز وجل – التي هي أغلى وأعز ما في الجنة؟! نسأل الله من فضله؛ فقد ثبت عنه ﷺ أنه تلا قوله تعالى: ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا**

(١) الحديث أصله في صحيح مسلم عن أنس — رضي الله عنه –، انظر: «مختصر مسلم» ١٩٨٦ بلفظ آخر مقارب، وهذه الرواية من السلسلة الصحيحة ١١٦٧. وللإمام ابن رجب كلام جميل في حفظ الله تعالى للعبد في دينه ودنياه، وأنه لا يلزم من قلة المال والجاه شقاء العبد بل قد يكون الفقر سببًا لسعادته فانظره في «جامع العلوم والحكم» ج١ص٤٦٨-٤٧٠.

الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟! قال: فيكشف عنهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم**» [1].

والآن – أخي القارئ الكريم – متّع ناظريك وشنف مسامعك بتلاوة وتدبر هذه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

فيا لها من بشارة، ويا له من نعيم من رب كريم، نسأل الله الكريم من فضله.

* * *

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان/ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ٢٩٧ – ٢٩٨، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ج٣ص٢٠-٢١. ط المعارف بالرياض.

استراحة سلفية إيمانية

ولهذا الذي تقدم من حياة طيبة، وحفظ في الدارين، وبشارة بالجنة، التي فيها ما تلذ الأعين، وتشتهي الأنفس، وتطمئن على الماضي والمستقبل، وثقة بالله ويقين بذلك كله أقول: لما فقه السلف الصالح ذلك جيدًا، وعلموا ما أعده الله للمستقيم على شرعه، والمحافظ على دينه، ولمحبتهم لله ورسوله ولدينه هانت عليهم الدنيا وما فيها، ورخصت عندهم الحياة، فضحوا ﷺ بالغالي والنفيس؛ ضحوا بالمال، والدور، والعقار، والأرض ... فكانت الهجرة؛ ضحوا بالأهل والولد، وتقاسموا الأرض والزوج ... فكانت الدعوة والنصرة! بل ضحوا بأنفسهم وقدموها رخيصة في سبيل الله فكان الجهاد.

من ذا الذي باع الحياة رخيصة

ورأى رضاك أعز شيء فاشترى

فاشتروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧]؛ طلقوا الدنيا ثلاثًا، طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه:

إن لله عبادًا فطنًا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي سكنًا

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

تركوا الدنيا لأهلها، وأخذوا منها ما يبلغهم الدار الآخرة، ويقويهم على الطاعة، ويعينهم على العبادة، ويثبتهم على

الاستقامة، ويكون عونًا لهم على الدعوة والجهـاد في سـبيل الله؛ ورضى الرحمن؛ قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]؛ جعلوا الآخرة همهم وطاعة الله ورضاه غايتهم، فأتتهم الدنيا بأسرها وهي راغمة ودانت لهم الأرض وساسوا الخلق، فأصبحوا قادة وسادة الأمم بعد أن كانوا رعاة غنم – رضي الله عنهم أجمعين – وما قصة ربعي بن عامر البدوي الأعرابي، ذاك الرجل البسيط، ممزق الثياب، مثلوم الرمح والسيف، ذي الفرس الهزيل مع (رستم) قائد الفرس، وأمير الجند، ذي السلطان والقوة والمنعة والجبروت والأبهة والاحترام والهيبة– أقول: ما قصته وعزته ورفعته عنك – أخي القارئ الكريم – ببعيد، ولا بأس من ذكرها كاملة للعبرة والفائدة، ولتعلم كيف تصنع الاستقامة من الحفاة العراة الرُّحَّل البدو، وكيف تَرْفع من شأنهم في الدنيا والآخرة:

(يخرج "ربعي" ليدخل على رستم، فأوقفه عسكره وأخبروا (رستم) بمجيئه، فاستشار عظماء قومه فأشاروا عليه بالتباهي وإظهار الخيلاء والفخر والقوة والمنعة، فزين مجلسه بالنمارق [١] المذهبة، والزَّرابيِّ الحرير، واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، ولبس تاجه المزخرف وجلس على سرير من ذهب، فدخل ربعي بثيابه المرقعة، وفرسه القصير، وسيفه وترسه، ولم يزل راكبًا حتى مشى

---

(١) النمارق: الوسائد.

على طرف البساط، ثم نزل بها، وربطهـــا بـــبعض الوســـائد ولم يستطيعوا أن ينكروا عليه، فأقبل ومعه ســـلاحه! فقـــالوا: ضـــع سلاحك، قال: إني لم آتكم بل أنتم الذين دعوتموني؛ فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت!! قال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحـــه المثلم فوق النمارق، فخرقها، فقيل: ما حملك على هذا؟ قال: إنَّا لا نستحب القعود على زينتكم هذه! ثم جلس، فقال له رستم: مـــا جاء بكم؟ فقال – رضي الله عنه – كلمته المشهورة، التي حفظها التاريخ، ورددتها الأجيال، ووعاها الزمان، قالها بفطرته الســـليمة، وعقيدته القوية: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العبـــاد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل قبلنا منـــه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله». قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. وبعد ذلك حصل نقاش حول إمهالهم ثلاثـــة أيـــام إمـــا أن يسلموا، أو الجزية، أو القتال[1]، والشاهد منها: ثبات ربيعـــي – رضي الله عنه – وعزته بدينه واستقامته عليه وعدم التفاته واغتراره بما عليه الأعداء.

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِـــي الْبِلَـــادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]. فلا يغيره ترغيب ولا ترهيب؛ بل الدين عنده أغلى من كل شيء!! ولهذا بين هدفه وغايته هو وأصـــحابه مـــن

(١) وانظر: قصته في تاريخ الطبري ٤٠١/٢ ط دار الكتب العلمية والبداية والنهاية ٤٠/٧ ط دار الكتب العلمية المحققة.

القتال والجهاد؛ ألا وهو إخراج الناس من الشرك والكفر إلى التوحيد والحق.

أقول: بذل سلفنا الصالح النفس والنفيس من مال وأهل وولد في سبيل الله ومن أجل الحفاظ على هذا الدين والاستقامة عليه، كيف لا وقائدهم ومربيهم محمد بن عبد الله ﷺ الذي ضحى بنفسه وماله وأهله وجاهه بل حتى بدعوته المستجابة ادخرها لنا و لم يصرفها كما فعل من قبله الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1] ؛ فلكل نبي دعوة مستجابة دعا بها إلا رسول الله؛ ادخرها لأمته ﷺ كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة – إن شاء الله – من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»[2]. ولهذا تعلّم منه السلف واقتدوا به ﷺ في ذلك، وسيرته خير شاهد على بذله وعطائه واستقامته؛ فقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان القمة في البذل والعطاء والإنفاق والتضحية لدين الله بكل ما يملك، ويكفيك مطالعة أي كتاب من كتب السيرة؛ لنتعلم منه القدوة والأسوة – عليه الصلاة والسلام [3].

---

(١) انظر: «أخلاق الرسول ﷺ» للشيخ: عبد المحسن العباد.

(٢) انظر: مختصر مسلم ٩٥، وصحيح الجامع ٥١٧٥.

(٣) وأنصح بمطالعة: «صحيح الشمائل المحمدية» للترمذي تحقيق الألباني – رحمهما الله –، «الرحيق المختوم» للمباركفوري، «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم.

أما الصحابة فمواقفهم أكثر من أن تُحصر؛ فهذا أبو بكر ينفق ماله كله في سبيل الله لتجهيز جيش المسلمين، ويقول له الرسول ﷺ:«**ماذا أبقيت لأهلك؟ يقول: أبقيت لهم الله ورسوله**»[1]، وكذلك يضحي بنفسه مع رسول الله ﷺ في غزواته.

وهذا عمر يضحي بنصف ماله رضي الله عنه [2]، بل وبنفسه حين كانت الدعوة سرية؛ فجهر بإسلامه وتحدى المشركين عند الكعبة [3] وتقاتل معهم، وعند الهجرة قصته وتحديه للمشركين معلومة أيضًا.

وهذا عثمان يجهز قافلة كاملة في جيش العسرة [4] يوم تبوك، وينفق ذات مرة، فيقول الرسول ﷺ: «**ما على عثمان عمل بعد هذا**»[5]. وفي رواية: «**ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم**».

وهذا علي يضحي بنفسه ليلة الهجرة [6]، وكذلك ابن عوف وابن عمر رضي الله عنهم ، وكذلك الليث بن سعد، وابن المبارك، وزين

---

(١) انظر: صفة الصفوة ٢٤١/١، والصحيح المسند من فضائل الصحابة لمصطفى العدوي ص٣٦.
(٢) المرجع السابق.
(٣) صفة الصفوة ٢٧٦/١.
(٤) صفة الصفوة ٣٠١/١، وانظر: صحيح المسند من فضائل الصحابة مصطفى العدوي ص٣٦.
(٥) رواه الإمام أحمد والترمذي المشكاة ٦٠٦٣.
(٦) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص١١٣ طبعة مؤسسة الرسالة لعام ١٤٠٦هـ.

العابدين [١] وغيرهم من المنفقين في سبيل الله؛ شهدت لهم الدنيا بأسرها في كثرة إنفاقهم في سبيل الله على المجاهدين، وطلبة العلم، والفقراء، والمساكين، والمحتاجين، ومواساتهم، ونحو ذلك مما يعجز عنه وصف الواصفون.

وهذا صهيب [٢] رضي الله عنه ينطلق مهاجرًا فيلحق به أهل قريش، ويريدون رده عن اللحاق برسول الله ﷺ فيقول لهم: «تعلمون أني أرماكم للسهم فإن شئتم رميتكم بسهامي». فقال الماديون أهل مطامع الأرض: أتيتنا فقيرًا! ثم ما لبثت إلا وكثر مالك، وعظمت تجارتك! فوالله لا نتركك تذهب بهذا المال. قال: أما وقد أردتم المال فإليكموه، فهو في مكان كذا وكذا، ثم انطلق مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ.

أتدري – أخي القارئ الحبيب – ماذا قال رسول الله له، قال: «**ربح البيع أبا يحيى! ربح البيع أبا يحيى**»[٣]. بل قال أنس رضي الله عنه: إن الآية نزلت فيه. وهي قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [البقرة: ٢٠٧] ؛ ضحى بماله، وتجارته، ودنياه في سبيل الله؛ حتى لا تكون سببًا في بقائه، وحيلولة بينه وبين الاستقامة على شرع الله والاستجابة لأمر الله بالهجرة!

---

(١) انظر: قصصهم في سير أعلام النبلاء وصفة الصفوة والبداية والنهاية وحلية الأولياء وغيرها.

(٢) صفة الصفوة ١/٤٣٠ وانظرها عند الحاكم في المستدرك.

(٣) رواه الحاكم وصححه الذهبي، انظر: المستدرك ٣/٣٩٨، والصحيح المسند من فضائل الصحابة ص٣٢٦.

وهذا حنظلة بن عامر [١] وما أدراك ما حنظلة؟ غسيل الملائكة ﷺ يضحي بزوجته في ليلة زفافه من أجل الحفاظ على دين الله والاستقامة على شرعه، يدخل على زوجته الجميلة ويبيت معها ويقضي وطره منها، وقبل أن يغتسل من الجنابة! يسمع منادي الجهاد وداعي رسول الله: حي على الجهاد، حي على الجهاد، يا خيل الله اركبي، فينطلق ملبيًا مستجيبًا نداء رسول الله كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ فحياتكم وعزكم وسعادتكم في الجهاد [٢] فينطلق مع رسول الله ﷺ ويجاهد ويقتل في سبيل الله ولما يغتسل فما هي الجائزة؟ يقول ﷺ فيما ثبت عنه: «**لقد رأيت الملائكة تغسله في صحاف من ذهب من ماء المزن بين السماء والأرض**»[٣] فيا لها من نعمة، ويا له من فضل، وأنعم وأكرم بها من سعادة وغسل طاهر!

وهذا حمزة ﷺ عم الرسول ﷺ يترك قريشًا وكبرياءها وغطرستها، ويسلم لله رب العالمين، ويكون من أوائل المدافعين عن رسول الله ﷺ ويبذل الغالي والنفيس نصرة لدين الله حتى يقتل

---

(١) انظر: صفة الصفوة ٦٠٨/١.

(٢) معنى الحياة في قوله: ﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ قيل: إنه القرآن، وقيل: الجهاد، وقيل: العلم، وقيل: الإيمان. ولا مانع منها جميعًا وكل واحد من هذه الأقوال يدل على الآخر ويحتمله الفهم السلفي وهو من باب اختلاف التنوع لا التضاد، والله أعلم، انظر: تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٨٥ دار الجيل الطبعة الثانية.

(٣) انظر: «السنن». وهو صحيح، وانظر: «صحيح المسند من فضائل الصحابة» للعدوي ص٢٨٦.

شهيدًا ثابتًا، فيكون سيد الشهداء ويكون – أيضًا – غسيل الملائكة كما قال ﷺ: «**لقد رأيت الملائكة تغسل حمزة**»[1].

وهذا جليبيب وقصته مشهورة معروفة، صحابي جليل لم يرزق وسامة في وجهه ولا شكله، ولم يكن ذا نسب وحسب، وتردد على بيوت الصحابة كثيرًا للزواج، فلم يجد من يزوجه! لنسبه وشكله ولونه رضي الله عنه ! فيرسله رسول الله ﷺ إلى بيت من أحسن البيوت نسبًا ولخطبة فتاة جميلة ذات نسب وحسب؛ بل يقول ﷺ لأبيها زوجني ابنتك! ويقصد بذلك تزويج جليبيب رضي الله عنه ! وبعد محاولات يعقد عليها وفي ليلة زفافه وقبل أن يدخل بها [2] يسمع منادي الجهاد: يا خيل الله اركبي، حي على الجهاد؛ ولأنه محافظ على الصلاة، لم يخن حي الجهاد.

من خان حي على الصلاة يخون حي على الجهاد

يضحي بها ويشتري بمهرها «وهو صدقة عليه من ابن عوف وغيره» فرسًا ورمحًا فيقاتل ويقاتل حتى قتل في سبيل الله، فيسأل عنه رسول الله ﷺ: «**من تفقدون؟**» يقولون: نفقد فلانًا وفلانًا وفلانًا من المشهورين المعروفين وهو غير معروف للبشر ويكفيه

(١) أحكام الجنائز للألباني ص٥٦، والإرواء ٧/٣، والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع ٥/٣٣ وأما حديث سيد الشهداء حمزة فهو في صحيح الجامع ٣٦٧٦.

(٢) هو من هو في شكله ونسبه وفقره، وهي كذلك في جمالها وحسبها ونسبها ودينها – رضي الله عنهما – ففي ميزاننا نقول: هي فرصة العمر له لا يمكن بحال أن يفرط بها، ولو انطبقت السماء على الأرض، فمن أين له بمثلها؟! بل بمن هي أقل منها؟! لكنه الإيمان يصنع المعجزات!

معرفة رب البشر له. فيقول ﷺ: «**من تفقدون؟**» مرة أخرى، يقولون: فلانًا، وفلانًا، فيقول: «**ولكن أفقد جليبيًا!**». فيبحث عنه فيجده خلف سفح مجندلاً وحوله سبعة من فرسان الكفر قد أرداهم صرعى، ثم استشهد، فيرفعه رسول الله ﷺ ويضعه على يديه ويقول: بأبي هو وأمي: «**اللهم هذا مني وأنا منه، اللهم ارض عنه**»[1] فأي بذل هذا؟! وأي تضحية هذه؟! ثم أي شهادة أعظم من شهادة رسول الله ﷺ له؟!

وهذا ابن رواحة ﷺ في غزوة مؤتة يتقدمه زيد بن ثابت فيقتل شهيدًا أمام عينه، وهذا مؤثر في نفس الجندي؛ أن يُقتل أميره، ثم يحمل الراية جعفر الطيار ﷺ (جعفر بن أبي طالب)، فتقطع يمينه، فيحمل الراية بشماله، فتقطع أيضًا، فيحملها بعضديه، ويضم الراية بصدره [2]، ثم يستشهد أيضًا، أما ابن رواحة، وقبل استشهاده ينشد ويرجز في فرح وسرور ما بعده سرور، ومن ذاق عرف، ومن جرب علم:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

---

(١) القصة أصلها في مسلم برقم ٢٤٧٢، وقد رواها الإمام أحمد ٤٢٥/٤، وذكرها ابن الجوزي في صفة الصفوة ٦٠٨/١. وانظر: الصحيح المسند من فضائل الصحابة ص٢٩٠.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص٢٤٠ ط مؤسسة الرسالة، وجعفر رضي الله عنه ضرب أيضًا أروع المثل في ثباته واستقامته، وصموده، حتى ضحى بيديه وأصر على حمل الراية والثبات على ذلك، فاستحق أن يعوضه الله بجناحين يطير بهما مع الملائكة إكرامًا من الله له وفضلاً منه، كما صح في الحديث وهذا في ترتيب صحيح الجامع ط المعارف ج٢ ص١٤٣ والصحيحة ١٢٢٦.

والروم روم قد دنــا عــذابها   علـــى إن لاقيتـــها ضــــرابها

وبعد استشهاد أخوين أمامه واستلامه القيادة والراية، وعددهم لا يتجاوز الآلاف الثلاثة أمام مائة ألف تقريبًا، فلا مقارنة مطلقًا، ومع ذلك لما استشعر الجنة ونعميها وما أعده الله فيها يقسم علـــى نفسه ويحثها على الاستقامة والثبات وعدم التردد:

أقسمت يـــا نفـــس لتنـــزلن   لتنـــــــزلن أو لتكــــــــرهن
إن أجلب الناس وشدوا الرنَّه   مـــالي أراك تكـــرهين الجنـــة
قد طال ما قد كنت مطمئنـــة   هل أنت إلا نطفـــة في شـــنة

ثم قال:

يا نفـــس إلا تقتلـــي تمـــوتي   هذا حمام الموت قـــد صـــليت
وما تمنيـــت فقـــد أعطيـــت   إن تفعلـــي فعلـــهما هـــديت

أي: فعلَ صاحبَيْه زيد وجعفر – رضي الله عنـــهما؛ فيقاتـــل بشجاعة وجرأة حتى استشهد رضي الله عنه [(١)].

وهذا عمير بن الحمام في غزوة بدر الكبرى لما سمع من رسول الله ﷺ ما أعده الله في الجنة للمجاهد، وأنه ليس بينه وبينها إلا أن يقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر مخلصًا لله: «**قومـــوا إلى جنـــة عرضها السموات والأرض**». قال عمير رضي الله عنه : بخ بخ!! (وهـــي كلمة تعجب وتفخيم للأمر)، فقال ﷺ: «**ما حملك على قولـــك**

---

(١) صفة الصفوة ٤٨١/١، وانظر: الصحيح المسند من فضائل الصحابة للعدوي ص٢٨١، وانظر: تهذيب السيرة ص٢٤١.

هذا؟» قال: لا والله ما حملني إلا رجاء أن أكون من أهلها. فقال الرسول ﷺ: «**أنت منهم**».

فلما سمع هذا الوعد وصدق به أخرج تمرات كانت في جعبته، فألقاها خلفه وقال: والله إنها لحياة طويلة إن أبقاني الله حتى آكل هذه التمرات [1]. ثم انطلق قائلاً:

ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ [طه: ٨٤]. فقاتل حتى قُتل شهيدًا في سبيل لله.

وهذا حرام بن ملحان ؓ لما طعنه الكافر قال: «الله أكبر! فزت ورب الكعبة»[2] أي: بالجنة ونعيمها ورضى الله عز وجل ورؤيته التي هي أعظم الفوز .. قالها ثقة بالله ورجاء لما عنده تعالى، فكانت هذه الكلمات الثلاث سببًا في إسلام طاعنه! وقد قُتل هو الآخر شهيدًا، فيا سبحان الله كم للاستقامة من أثر على الفرد وغيره من أسرة ومجتمع وأمة.

---

(١) القصة في صحيح مسلم ١٩٠١، وذكرها ابن الجوزي في الصفة ٤٨٨/١، وفضائل الصحابة للعدوي ص٢٨٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب المغازي باب غزوة الرجيع رقم الحديث ٤٠٩٢، وأما إسلام قاتله فذكرها ابن حجر في الفتح ٣٨٨/٧، وليست في الصحيح.

ولما شغلت يد صاحبها عن أن يستمر في الجهاد تخلص منـــها حتى لا تعوقه عن استمرارية الجهاد. أتدرون من هو؟!

إنه معاذ بن عمرو بن الجموح .. ابن الأعرج الذي أقســـم أن يطأ بعرجته الجنة وهو معذور فقاتل حتى استشهد ﴿ **ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ** ﴾[1].

أقول: هذا معاذ يرى أبا جهل ومعه كوكبة مـــن الفرســـان لتحميه فيحاول الدخول إلى أبي جهل ... ويفعل – رضي الله عنه – ثم يضرب أبا جهل في فخذه ويقطعها مع ساقه، فبادره عكرمة بن أبي جهل بضربة في يده فقطعها، فأصبح يجر يده معه، وآلمتـــه وهو يسحبها فلما رأى أنها ستشغله عن مواصلة القتال وطأ عليها بقدمه ورماها خلفه [2]!! سبحان الله! عضو من أعضائه!! يده ... يرميها ويطأ عليها! لماذا؟ وقد كان يستطيع الـــذهاب للمـــؤخرة مؤخرة الصف ويعالج نفسه، أو يستريح من عناء المعركة، ويخفف على نفسه من آلام القطع ولكنه أبى إلا أن يطأها فمـــا الســـبب؟ السبب، وهو من أعجب العجب، إنه الإيمان يصنع أكبر من ذلك! إنه خشي أنها ستشغله عن المواصلة والاستمرار على الجهاد والقتال في بدر ... ومع ذلك كله ... ماذا حصل له؟ هل مـــات؟! لقـــد عاش بعد ذلك حتى زمن عثمان – رضي الله عنه! لتعلم أنـــه لـــن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٥٢/١، وانظر: الصحيح المسند من فضائل الصحابة للعدوي ص٣٦٦.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٢٤٩/١.

أقول: ضحَّى بيده بعضو من أعضائه ... فكيف بمن شغله البيع والشراء والعقار والدور والمال والولد عن طاعة الله عز وجل؟! قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

بل انظر إلى الأسئلة التي يسألها أصحاب النبي ﷺ والتي تدل على الهمة العالية، كما قال البحتري:

نفس تضيء وهمة تتوقد

فهذا عوف بن عفراء (وهو أحد سبعة من أبناء عفراء رضي الله عنها، شاركوا في غزوة بدر) يأتي ويسأل النبي ﷺ: «**ما يضحك الله من العبد؟**» وإذا ضحك الله من عبد فلا حساب عليه يوم القيامة [1] فيقول الرسول ﷺ: «**غمسة يده في العدو وهو حاسر**». فينزع درعه ويكسر غمده ويقاتل حتى استشهد في سبيل الله عز وجل [2]، والأمثلة في ذلك كثيرة جدًا نحتاج إلى مجلدات لتدوينها في تضحياتهم وبذلهم في سبيل الله والحفاظ على دينه:

كن كالصحابة في زهد وفي القوم هم ما لهم في الناس أشباه
عباد ليل إذا جن الظلام بهم كم عابد دمعه على الخد أجراه
وأسد غابة إذا نادى الجهاد بهم هبوا إلى الموت يستلقون رؤياه

---

(١) ضحكًا يليق بجلاله وكماله صفة نثبتها لله عز وجل دون تمثيل ولا تأويل ولا تحريف كما هو معتقد أهل السنة والجماعة والسلف الصالح رضي الله عنهم.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ج٢ص٣٥٩.

يا رب فابعث من مثلهم نفـــرًا   يشيدون لنـــا مجـــدًا أضـــعناه

أولئك الصحابة ﷺ الذين يقتدى بهم، ويُسارُ على منـــهجم، وتبعهم بعد ذلك السلف الصالح ﷺ فتشبهوا بهـــم في عقيـــدتهم، وعباداتهم، ومعاملاتهم، وأخلاقهم، وجهادهم، ودعـــوتهم؛ فهـــذا الإمام أحمد بن حنبل؛ كيف ثبت الله به الأمة يوم فتنة خلق القرآن، وحفظ الله بالسنة، فكان – بحقٍّ – إمام أهل السنة والجماعة.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ... يصمم ويصر على الاستقامة الشرعية مهما فُعل به، فيقول: «ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جـــنتي وبستاني في صدري! أينما رحت فهي معـــي، إن قتلـــوني فقتلـــي شهادة، وإن سجنوني فسجني خلوة، وإن أخرجوني عن بلدي فهي سياحة!». فهو مصمم على مواصلة الطاعة والاستقامة على الشرع في كل الأحوال والظروف والأمكنة حتى الممات، وفي الوقت نفسه رفض أن يتعرض أحد تلاميذه ومحبيه لمن آذاه وتعرض لسجنه؛ لأنه يعمل لله لا لنفسه – رحمه الله – كما في رســـالته مـــن الســـجن لتلاميذه (١).

---

(١) انظر: رسالته في مجموع الفتاوى الجزء ج٢٨ ص٥٢-٥٧. وأما ترجمة حياته فالمؤلفات القديمة والحديثة في ذلك كثيرة؛ بل هناك رسائل جامعية في أكثر من جامعة في ترجمة ودراسة جزء من حياته – رحمه الله – وصدق – رحمه الله – حين نقل عن أبي بكر بن عياش أن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم. اهـــ. الفتاوى ج٢٨ص٣٨.

وهذا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في استقامته ودعوته وصبره وجهاده أمام القبوريين والوثنيين، والمبتدعة الضالين، فصبر على العلم والتعليم والدعوة للتوحيد والنصح والجهاد، حتى كانت الثمرة العظيمة، وهي تطهير الجزيرة العربية من الشرك والوثنية، ومن ثم قيام الدولة السعودية التي لا زلنا نتفيأ ظلالها بفضل الله تعالى ثم تحكيمها لشرع الله والدعوة إليه ... تلك الدولة التي قامت على الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، وهذا هو عزّها وفلاحها ... نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا وأمننا وأن يصلح أحوالنا والمسلمين جميعًا في كل مكان، وأن يوفق الراعي والرعية للثبات على الدين والاستقامة عليه، إنه سميع مجيب.

وهذا سماحة الإمام الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – يضرب أروع المثل في الاستقامة على التوحيد والعلم والعمل والدعوة والكرم والبذل والسخاء وسماحة النفس وحمل هموم المسلمين والهمة العالية في ذلك كله حتى آخر لحظة من حياته – رحمه الله تعالى –[1]، وغيرهم ولله الحمد كثير؛ فهل عند الشرق والغرب أمثال هؤلاء؟!!

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

---

(١) انظر: كتاب «الإنجاز في سيرة الإمام ابن باز» ولقاء مسجل مع الشيخ عبد الرحمن بن جلال عن حياة الشيخ بالدلم. وأما عن ترجمة الإمام محمد بن عبد الوهاب، فانظر ما كتبه سماحة الشيخ ابن باز في رسالته «الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته» فقد ذكر فيها أمثلة كثيرة من استقامته على العلم بالعمل والدعوة والجهاد، فلتنظر فهي موجزة ومفيدة.

ماذا نقول وعمن نكتب من السلف! فحياتهم مليئة بالقصص التي نفخر بها ونعتز ... كل ذلك فعلوه وقدموه لَمَّا علموا أهمية الاستقامة وما أعده الله لأهلها من نعيم مقيم وسعادة دائمة في الدارين، فهانت لذلك الدنيا عندهم ورخصت، وباعوا الدنيا كلها؛ بل حتى أنفسهم، لله – عز وجل –؛ لأن الله اشتراها منهم وهي ملك له – عز وجل – وكل هذا نعمة منه وفضل.

أما نحن فقد صعبت وشقت علينا الاستقامة؛ ومن ثَمَّ قَلَّت التضحيات، وضعف البذل للدين؛ سواء بنشر العلم أو الدعوة إلى التوحيد أو غير ذلك؛ إلا عند من رحم الله؛ لأن القلوب تعلقت بالدنيا، وتغلغلت الدنيا في القلوب! ولهذا أصابنا الوهن ولم نستطع مواجهة الأعداء، والوهن «حب الدنيا، وكراهية الموت والقتال في سبيل الله» كما أخبر الرسول ﷺ في حديث ثوبان [1].

نسأل الله أن يجعل الدنيا في أيدينا وأن لا يجعلها في قلوبنا، وأن لا يجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا إلى النار مصيرنا، وأن يجعل الجنة هي دارنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه [2].

---

(١) حديث صحيح انظر: صحيح الجامع رقم ٨٠٣٥.

(٢) والقصص الواردة في استقامة السلف في طلب العلم والعمل والمحافظة على الطاعات بأنواعها والبعد عن المنهيات كثيرة جدًا، فهذا سعيد بن المسيب يحافظ على الصلاة مع الجماعة وفي الصف الأول أربعين سنة لا تفوته تكبيرة إحرام!! ومن أراد التوسع فعليه «بصفة الصفوة» لابن الجوزي «وسير أعلام النبلاء» للذهبي. «ورهبان الليل» للعفاني. وسيأتي بعضها – إن شاء الله – في وسائل الاستقامة الوسيلة الرابعة.

عواقب المنحرف عن الاستقامة

وهي في الحقيقة معلومة معروفة، وهي خلاف وضد ما ذكرناه من فوائد وآثار الاستقامة في الدارين، وكما قيل: (وبضدها تتميز الأشياء)؛ فلا يَعرف طعم الشيء إلا من جرب ضده، ولا يَعرف طعم السعادة والراحة والطمأنينة والرغد إلا من حُرم ذلك كله، فلهذا نذكر طرفًا من عواقب الانحراف عن الجادة من باب الترهيب بعد الترغيب؛ فالترهيب بالمواعظ القرآنية من سياط القلوب، نسأل الله أن ينفع بها، وأن يوقظ بها القلوب، وأن يفتح بها آذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا وأعينًا عميًا، إنه سميع مجيب.

أقول: نذكرها لأن البعض قد تؤثر فيه سياط الترهيب أكثر من فواكه وثمار الترغيب ... ولله في خلقه شئون! وقد أخبرنا رسول الله ﷺ: أن أناسًا من أمته يُقادون إلى الجنة بالسلاسل [1]، فمن الناس من تنفع معهم الموعظة الحسنة والتذكير بالنعيم المقيم من الجنة، وما أعده الله للصالحين فيها، ومنهم من لا ينفع معه إلا الحزم، وهو في حقه أرحم وأولى وأجد! ولكل وجهة هو موليها، وما علينا إلا استخدام العلاج المناسب للشخص المناسب في الوقت المناسب؛ كما قيل:

البس لكل ساعة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٥٥٧ الفتح ٨/٧٢، صحيح الجامع رقم ٣٨٨٧.

فنقول وبالله التوفيق، ومنه نستمد العون: من عواقب المنحرف:

أولاً: الحياة النكدة والشقاء المستمر:

فالمعرض عن شرع الله، والمبتعد عن وحي الله وسنة رسوله ﷺ يعيش في شقاء وضنك وتعب ونصب فهو من شقاء إلى تعاسة إلى هموم وغموم... إلخ، قال تعالى: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾ [النور: ٤٠]. والشيطان اللعين قرينه وناقله من هم إلى غم، إلى شقاء وتعاسة بسبب إعراضه عن الله وشرعه، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦]، وهو مطرود من رحمة الله، ومن طرده الله من رحمته فمن الذي يؤويه! ومن الذي يسعده! ومن يرحمه! وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى: «من ظن أنه سيهتدي بغير هدى الله ورسوله؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». وهو كما تقدم في ضنك وضيق في الدنيا وفي البرزخ، أما في الآخرة فيكون أعمى كما عمي قلبه في الدنيا، والجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٦][1].

---

(١) انظر: «الفوائد» لابن القيم ٢١٩، فقد علق – رحمه الله – على هذه الآية تعليقًا جميلاً فلينظر.

ومهما حاول الذهاب إلى المصحات النفسية ودور النقاهة، وسافر شرقًا وغربًا لإزالة الشقاء، وصنع كل ما يخطر ولا يخطر ببال أحدنا من متع وشهوات وغيرها! فلن يصل إلى السعادة! بل سيزداد شقاءً إلى شقائه، وتعاسة إلى تعاسته، وهمومًا إلى همه، وهذا أمر معلوم مجرب مقرر عند العقلاء، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾؛ أي ضيقة في الدنيا والبرزخ كما قرر العلماء – رحمهم الله – ويوضح ذلك الآية الأخرى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وإني سائلك – أخي القارئ:

ما هو حالك بعد مقارفة المعصية؟ هل تشعر براحة وسعادة؟ أم بنكد وهم وغم وتأنيب للضمير وضيق في الصدر ...إلخ؟

ثم إني أسألك مرة أخرى: هل تشعر بشيء من هذا بعد صلاة أو قراءة قرآن أو حضور مجلس علم؟! وأظنك – أخي الكريم – قد فهمت جيدًا ما قصدت وأردت!

إن السعادة ... كل السعادة ... في طاعة الله عز وجل.

ثانيًا: الموت الحقيقي:

فإن المنحرف في حقيقة أمره ميت وإن مشى بين الأحياء ومعهم؛ لأن الموت موت القلب وإذا مات القلب فما الفائدة من الجسم؟

ليس بالأحياء جسم ودم إنما الأحياء فكر ومعاني

لو تهاوى الجسم في عمق سيظل الفكر في قلب الزمان

وقال الآخر:

يا خادم الجسم كم تشقى أتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فالحياة الحقيقية حياة القلب، والموت الحقيقي موت القلب، قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

ولهذا قال ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[٢].

ثالثًا: منزلته أردى وأحط من البهائم:

ولهذا يقول تعالى في شأن المنحرفين عن الجادة الذين عطّلوا قلوبهم وعقولهم وأسماعهم عن الحق والعمل به: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛

---

(١) من أبيات للوالد الأستاذ الأديب/ عبد الرحمن الحقيل – حفظه الله – وعفا عنه ووفقه لكل خير ورزقنا بره والقيام بحقوق والدينا، وله عدة دواوين شعرية وكتب أدبية منها: «الحصاد، وحبات رمل، ومن الأعماق» وغيرها.

(٢) رواه البخاري ٢٠٨/١١ مع الفتح. وانظر: «الفوائد» لابن القيم وما بعدها حول حياة القلب وموته ص١٠، ١١٧، ١١٩، ١٢٨، وغيرها.

بل جعلهم الله شر الدواب؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٢]. لماذا؟ لأنهم أعرضوا عن الحق، وحتى لو سمعوه لم يستقيموا عليه،كما قال تعالى بعد الآية السابقة مباشرة: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٣].

رابعًا: الضياع لأهله وماله:

أما في الدنيا فهو يتردى في أودية الهلاك يشتت الله شمله، ويمزق جمعه؛ فلا حفظ ولا نصر ولا تأييد، كما قال ﷺ: «**من كانت الدنيا همَّه شتت الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(١).

وقال ﷺ: «**من جعل الهموم همًا واحدًا هم المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: صحيح الجامع برقم ٦١٨٩ عن ابن مسعود – رضي الله عنه – ولهذا فقه السلف ذلك جيدًا، فكان الرجل منهم إذا رأى خلقًا سيئًا في أهله أو خادمه أو حتى دابته علم أن سبب ذلك المعصية، وكانوا يقولون: من ضيَّع تقواه فقد ضيع نفسه، وانظر: جامع العلوم والحكم ٤٦٦/١ – ٤٦٨ وكذلك لمعرفة خطر الذنوب والمعاصي انظر: «الداء والدواء» أو «الجواب الكافي» لابن القيم – رحمه الله، ولصاحب هذه السطور – عفا الله عنه – رسالة بعنوان: «عذاب الدنيا أسبابه – أنواعه – وسائل دفعه».

وأما في الآخرة فسيسخر نفسه وأهله إن لم يتداركه الله برحمته ويتوب عليه، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [الزمر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]. فمن أهمل نفسه وأهله ودفعهم إلى مهاوي الانحراف فإنه يخشى عليه وإياهم من نار عظيمة، وشقاء دائم في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة**»(١).

خامسًا: البشارة بالنار والعذاب عند الوفاة:

ولهذا فالملائكة تبشر المنحرف بالنار والعذاب عند نزع روحه، ويكون نزعها لروحه شديدًا جدًا كما ثبت في الحديث الصحيح تشبيه الرسول ﷺ نزع روحه بنزع الشوك من الصوف المبلول (٢). وكذلك يكون استقبال الملائكة له بعكس استقبال المستقيم؛ فلا ترحيب ولا تهنئة؛ وإنما ضرب للوجوه وتقبيح لأعماله ومناداة له بأقبح أسمائه عافانا الله وإياكم من ذلك، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ**

---

(١) متفق عليه. انظر: اللؤلؤ والمرجان في ما اتفق عليه الشيخان رقم ١٢٠٠ عن معقل بن يسار.

(٢) سبق تخريجه، ص٦٥ هامش ٦٧.

يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

سادسًا: على عرصات أرض المحشر:

وما أدراك ما أرض المحشر بالنسبة لهم؛ حر شديد، وعرق كثير يغطي أجسامهم أو بعضها على حسب الذنوب والمعاصي والانحراف عن منهج الله، وإذا كان من نوقش الحساب عذب [(١)] فكيف بمن عذّب؟! لا ظل ولا ظليل، ولا شرب من الحوض؛ بل الطرد والبعد عن ذلك!!

يأتون للشرب بعد العطش والحر الشديدين، فيُردّون عن الحوض فيقول الرسول ﷺ: «**أمتي! أمتي! أصحابي!**» فيقال له: «لا تدري ما أحدثوا بعدك» ثم بعد ذلك يكون المرور الصعب وتكون المرحلة الحاسمة الخطيرة، ألا وهي: العبور على جسر جهنم، جسرٌ أحدّ من السيف، وأدق من الشعرة، فأحدهم يحبو، والآخر يسقط، والثالث يريد الفرار؛ فتخطفه الكلاليب وتلقي به في نار جهنم والعياذ بالله، ويسيرون في ظلمات بعضها فوق بعض، فلا نور ولا ضوء؛ قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) كما قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها في الحديث المتفق عليه. انظر: اللؤلؤ والمرجان ١٨٢٧.

انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُــورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِــهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ويحرمون النظر والبصر فيصـــابون بـــالعمى، قـــال تعـــالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]؛ لأنه أعرض عـــن ربه ونسي آياته، نسأل الله الثبات على دينه (١).

سابعًا: الخسارة العظيمة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْــوَالُكُمْ وَلَــا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَــاعُ الْغُــرُورِ﴾ [آل عمــران: ١٨٥]؛ فالخسارة كل الخسارة هي الحرمان من جنة الله ... والمصيبة الدهماء كل المصيبة الوقوع في جهنم والعياذ بالله، فما أعظمها من خسارة، وما أكبرها من مصيبة، الوقوع في نار جهنم، وما أدراك ما جهنم؟

يقول عنها الله – عز وجل -: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَــارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَــا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) وأنصح بقراءة كتيب «أهوال يوم القيامة» لعبد الملك الكليب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿ **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١٢].

وقال: ﴿ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

قال المصطفى ﷺ: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»[(١)]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة [(٢)] فقال النبي ﷺ: «**أتدرون ما هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا**»[(٣)].

ويكفي أن تعلم بأن أهون أهلها عذابًا رجل تحت قدميه جمرتان من نار يغلي منها دماغه، كما في حديث النعمان بن بشير ﷺ قال ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا**»[(٤)] عياذًا بالله. وهذا يظن أنه أشدهم عذابًا!! فكيف بأشدهم عذابًا؟!

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ انظر: مختصر بتحقيق الألباني برقم ١٩٧٦.

(٢) أي سقطة.

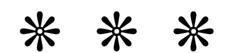
(٣) المرجع السابق برقم ١٩٧٧.

(٤) المرجع السابق برقم ١٩٧٨، وانظر: الصحيحة برقم ١٦٨٠.

أخي الحبيب: ألا تكفينا هذه النصوص؟! ألا تؤثر في قلوبنا؟! ألا نخاف من الله، ونخشاه، ونتقي عذابه؟!

وصدق الله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧]. وقال في ختام السورة نفسها: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ [ق: ٤٥].

نسأل الله أن يصلح قلوبنا، ويرزقنا حبه وخوفه ورجاءه وخشيته في السر والعلن.



كيف أستقيم؟!

وسائل الاستقامة

وهنا نأتي إلى نهاية المطاف، وخاتمة الكلام، وهو الجواب المبين في وسائل الاستقامة على الدين المتين، وهو زبدة البحث – كما يقولون، وخلاصة الموضوع؛ لأنه جواب على أهم سؤال يدور في أذهان كثير من المسلمين، وخاصة الشباب من الجنسين.

كيف أستقيم؟ وما السبيل لذلك؟ وما هي الوسائل المعينة للثبات على هذا الدين حتى الممات؟

هي كثيرة، وتبحث في مظانّها، ويستطيع المسلم الكيّس الفطن تأملها من خلال تتبعه وتدبره لكلام الله، وكلام رسوله ﷺ وكلام السلف الكرام – رضي الله عنهم.

وقد اجتهدت في اختيار وانتقاء أهمها وأجمعها حسب علمي القاصر، علمًا أنه يمكن أن يكون هناك ما هو أهم، وحسبي بذل الوسع في اختيار الأهم، والله المستعان.

أولها: الإخلاص [1]:

وأمر الإخلاص عظيم وخطورة التهاون به جسيمة، كيف لا وهو المتابعةُ أساسُ وشرطُ قبولِ العمل بعد الإيمان والتوحيد، وهو

---

(١) أهمية الإخلاص وعظم أمره والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، وأقوال السلف، والتحذير ما يخالفه من رياء وعجب وغرور وتكبر ونحوه جدًا يطول المقام بشرحها، وإنما قصدنا الإشارة إليه، وقد كتب في ذلك أهل العلم كثيرًا، وأنصح القارئ بقراءة كتاب: «الإخلاص» للأخ حسين العوايشة – فهو قيم في بابه.

في الحقيقة أساس وركن بقية العوامل المعينة على الاستقامة؛ فلا تقوم إلا عليه! فالمخلص لا يلتفت قلبه يمنة ولا يسرة، ولا يشرك مع ربه أحدًا في عمله وعبادته، ولا يعمل من أجل الناس أو يترك العمل من أجلهم، وإنما يراقب الله وحده في سره وعلانيته، في حله وترحاله في جميع الأماكن والشهور ومع كل قوم، ومراقبته لله تدعوه وتدفعه للخوف من الله فيفر إليه؛ قال تعالى: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾، وتحثه على رجاء ما عنده – سبحانه وتعالى – فيجتهد في طاعته ليرضيه، ويعلم أن خالق رمضان والحرمين هو خالق ورب الشهور، والأماكن، والأشخاص كلهم، وأنه مطّلع عليه في كل حين؛ قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر: ١٩]؛ فيستحي من الله ويخاف منه ويرجو ثوابه:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستح من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

ولهذا تجد المخلص الموفق يجاهد نفسه ليطهّرها من الآثام والشرور، ويحملها على الطاعات وفعل الخيرات، ويحاسب نفسه في كل ساعة ... ماذا قال؟ وماذا عمل؟ وهل كان قوله وعمله موافقًا لشرع الله أم هو مخالف؟ ويتبع في سبيل إصلاح نفسه وتطهيرها وتزكيتها عدة أمور، منها:

* التوبة النصوح بشروطها، والاستغفار الكثير، كما كان يفعل – عليه الصلاة والسلام؛ فلا بد من الندم والعزم على ترك المعصية بعد الإقلاع منها إذا كانت كبيرة.

* مراقبة الله في جميع أعماله كما تقدم في كل زمان ومكـــان ومع أي قوم.

* المحاسبة على ما تقدم كم ربح وكم خســـر؟ قـــال تعـــالى: ﴿ **وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [الحشر: ١٨]. حتى يقـــول يـــوم القيامة: ﴿ **يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾. ثم مجاهدة نفسه على ذلك كله.

ومجاهدة النفس بصدق توصله وتفتح له سبل كثيرة وأبـــواب مغلقة من أبواب العلم والعمل؛ قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. في الدنيا والآخـــرة، ولـــذا يقول تعالى: ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَـــالِحًا ثُـــمَّ اهْتَدَى** ﴾ [طه: ٨٢]؛ فتوبة صادقة، وإيمان صحيح، وعمل صالح، ثم استقامة على ذلك ومجاهدة للنفس توصل للفلاح بإذن الله.

حماية ووقاية ربانية:

والإخلاص من أهم الأمور التي تعينك على الاستقامة كمـــا ذكرت وتحميك - بإذن الله تعالى - من الوقوع في المعاصي والزلل بفضل الله تعالى، وكلنا يقرأ قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز والنسوة: ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف: ٢٤].

فالإخلاص بعد توفيق الله وحفظه كان سببًا في صرف السوء والفحشاء عنه.

ووالله إن ما حدث ويحدث من نظر وسماع، وكلام وأكل محرم ما هو إلا بسبب قلة وضعف إخلاصنا أو عدمه، فإلى الله المشتكى، والله المستعان.

ثانيًا: العلم الشرعي:

فالعلم الشرعي لا البدعي من أعظم الأمور المعينة على الاستقامة الشرعية بعد الإيمان والإخلاص.

والعلم الشرعي هو ما وصفه ابن القيم والقحطاني بقوله:

العلم قال الله قال رسوله
قال الصحابة ليس بالتمويه(١)
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة
بين الرسول وبين قول فقيه(٢)

العلم بالكتاب والسنة على فهم السلف الصالح ﷺ وهو الذي يورث الخشية من الله وكفى بها مطلبًا[٣]؛ فمن خاف من الله وخشي منه، هرب وأناب وفرّ إليه – تعالى.

والخشية والخوف من الله من أعظم الأسباب الموجبة للجنة بعد رحمة الله؛ قال تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**﴾ [ق: ٣١-٣٤].

---

(١) من قول القحطاني – رحمه الله –.

(٢) من قول القحطاني – رحمه الله –.

(٣) ولهذا قال ابن مسعود – رضي الله عنه –:«إنما العلم الخشية». وكذا قال الإمام أحمد – رحمه الله.

فترى في الآيات أن المتقين الأوّابين الحافظين لأمر الله، هم من وصفهم الله بقوله: ﴿**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾ وأنهم أصحاب القلب المنيب: ﴿**وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾، والنصوص في ذلك كثيرة.

فما هو طريق الخشية والخوف المحمود من الله[1]؟

الجواب ... قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨-٣٣]؛ فأعلم الناس بالله وأسمائه وصفاته وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وثوابه وعقابه وأمره ونهيه هم أخشى الناس لله — عز وجل؛ لهذا جمع رسول الله ﷺ بين العلم والخشية، وجعل العلم قبل الخشية؛ لأنه سبب لحصولها وطريق لها؛ ففي صحيح البخاري — كما تقدم — قال ﷺ: «**فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

وأهمية وفضل العلم وأهله غير خافية عليك، ويكفي في ذلك أن الله قرن شهادتهم بشهادته والملائكة، قال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى -: «الخوف المحمود هو ما حجزك عن محارم الله» اهـ المدارج منزلة الخوف ج١ص٥٥١ (ط) دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ. فليس هو إذاً مجرد البكاء الوقتي أو التأثر اللحظي بل هو ما تقدم!!

وأما السنة؛ فيكفيك أن تعلم أن علامة إرادة الله الخير لك هو أن تتفقه في الدين كما في حديث معاوية – رضي الله عنه – في الصحيحين: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»؛ بل إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض والحيتان في البحر؛ حتى النملة في جحرها، ليصلون على مُعلّم الناس الخير.

فالعلم الشرعيّ الصحيح قبل القول والعمل، وقبل الاستقامة، قال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ [محمد: ١٩]. فبدأ بالعلم قبل القول والعمل كما قال البخاري وغيره، ولهذا قال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»؛ فالعلم من أعظم الطرق الموصلة للاستقامة؛ بل لا بد منه لتحصل عليها، ولا يكفي أن تكون مخلصًا فحسب حتى يقبل العمل؛ بل لا بد من المتابعة، ولا تحصل المتابعة الكاملة إلا بالعلم الشرعي، علم الكتاب والسنة على فهم السلف.

والعلم يحفظك بإذن الله من الوقوع في الزلل والخطل والخطأ والشرك والبدع، يحفظك من الوقوع فيما حذرنا الله منه من الغلو أو الجفو، من الإفراط أو التفريط، من التشدد دون علم أو التساهل، كل هذه النزغات الشيطانية وغيرها، لا يمكن التخلص منها إلا بالعلم الشرعي المقرون بالصدق والإخلاص والتجرد لله، وفي طلب الدليل والتجرد في متابعة النبي ﷺ وترك الانتساب لكل أحد غير الله ورسوله، كما قال ابن القيم رحمه الله في المدارج.

وقد روي عن النبي ﷺ: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»[١]. ولا شك أن الشيطان قد يضل ويغوي الكثير الكثير من العباد الجهال بالكثير من البدع، قال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر: ٨]؛ ولكنه يصعب عليه جدًا أن يفعل ذلك مع عالم تقي صادق قد حصن نفسه بالعلم الشرعي الصحيح، وتخلص من الأهواء والشهوات والشبهات، وصدق القائل: «الناس كلهم موتى إلا العالِمين، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم»[٢].

ثالثًا: التفكر والتدبر في آيات الله الشرعية والكونية:

فتدبر العبد للقرآن وما فيه من آيات الوعد والوعيد، والأسماء والصفات، وقصص الغابرين السابقين من الصالحين والطالحين، وتدبر نعمه وآلائه وغيرها، كل هذا يورث لينًا في القلب، وانكسارًا للنفس وخضوعًا وإجلالاً ومحبة وتعظيمًا لله رب العالمين، ومن ثمّ يستقيم العبد على شرع من أحب وأجل وعظم وخضع له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [الزمر: ٢٢].

---

(١) هذا الحديث حسنه الزرقاني في مختصر المقاصد الحسنة، ولكنه ضعفه محدث العصر الشيخ/ ناصر الدين الألباني، انظر: ضعيف الجامع برقم: ٣٩٨٧، والمشكاة ٢١٧.

(٢) هذه مقولة لا تصح حديثًا كما بينه الشيخ ناصر في السلسلة الضعيفة برقم ٧٦ إنما تروى عن بعض السلف.

والقسوة سببها الشرك والبدع والمعاصي؛ قال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]؛ فيجب الحرص على تليينها بتلاوة القرآن وتدبره وفهمه والعمل به، قراءةً بتدبر وخشوع وبكاء وتباكى، وكما قال ابن مسعود – فيما ذكره الآجري في أخلاق أهل القرآن والنووي في التبيان: «لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل؛ (أي التمر الرديئ)، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة».

وخير منه قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد: ١٦].

وكذلك تدبّر القرآن سبب لحصول الطمأنينة، والمستقيم – كما ذكرنا – في حياة طيبة، وعيشة سعيدة هنيئة، وقلب مطمئن.

فكيف تحصل الطمأنينة؟

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فتدبُّر كلام الله والإكثار من ذكره يلين القلوب ويهبها الطمأنينة الإيمانية والسكينة الربانية بإذن الله – عز وجل[١]، كما في الصحيح: «**إلا نزلت عليهم السكينة**».

---

(١) وانظر: أنواع هجر القرآن والحرج منه في الفوائد لابن القيم – رحمه الله – ص١٠٧ فقد ذكر – رحمه الله – أنها خمسة فانظرها، وتأملها، وتدبرها، واعرض نفسك عليها، والله المستعان.

وكذلك التفكر في آيات الله الكونية تثبت وترسخ العقيـدة، وتجعل العبد يقف مشدوهًا، ثم لا يلبث إلا أن ينحني لربه إجـلالاً وتعظيمًا وحبًا ورجاء وخشية [(١)]، قال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ [النبأ: ٦-٨].

والآيات كثيرة جدًا في هذا الأمر؛ فلا تحتاج المسألة إلى تعقيد، ولا تخصص في عالم الحيوان أو النبات أو الجبال والأرض؛ بل كل مسلم عالم أو عامي، رجل أو امرأة يستطيع النظر في مخلوقات الله وتدبرها وتدبر بديع صنع الله وأسراره في خلقـه، قـال تعـالى: ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل: ٨٨].

كلنا يستطيع تأمل السماء وعظمها والسحاب المسخر، والمطر والأرض والشجر والدواب، وكيف تتناسل وتتعامـل، واللغـات واللهجات وأنواعها والليل والنهار، والكواكب والشمس والقمر؛ أمور كثيرة وكثيرة كلها تدل على بديع صنع الله وإتقانه — تبارك

---

(١) وقد ذكر الإمام ابن القيم في المدارج ج٣ص١٧ ط دار الكتب العالمية ١٤٠٨هـ. أن هذا التفكر والتدبر أحد الأسباب العشرة الجالبة لمحبة الله — عز وجل -.

وتعالى – وكلها تدل على عظمة خالقها، وتسبح بحمده وتسجد له، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ فهي تدعونا لعبادة الله والعمل بأوامره وترك نواهيه والاستقامة على شرعه.

ولهذا تعجب الشاعر المسلم من المعاصي وهو يعلم هذا كله، ويشاهد كل يوم وكل صباح ومساء بديع صنع الله الدال عليه:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

روي عن الإمام أحمد: «يا عجبًا هذه البيضة أما سطحها ففضة بيضاء، وأما بطنها فذهب إبريق ألا تدل على السميع البصير»[1].

رابعًا: الصلوات الخمس:

إقامة الصلاة إقامة حقيقية ... ففي الظاهر بشروطها وأركانها، وواجباتها، والحرص على سننها وفي أوقاتها مع الجماعة في المساجد، وفي الباطن بالخشوع والإخلاص والإخبات واستحضار عظمة الله وسكون القلب والجوارح وطمأنينتها.

إن إقامتها إقامة حقيقية من الأمور التي تعين وتساعد على الاستقامة والثبات على الدين، وتسبب البعد عن المعاصي والآثام؛

(١) وأنصح – للتوسع في ذلك – مطالعة ما سطره ابن القيم في: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدرة والحكمة والتعليل». وانظر: «العقيدة في الله» للأشقر. وغيرها.

قال تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولهذا كان أول ما يحاسب عنه العبد الصلاة؛ فإن صلحت أفلح ونجح وصلح سائر عمله؛ وإن فسدت خاب وخسر كما صح في الحديث [١].

وما حدث الانحراف والضلال والمعاصي إلا بعد أن ضُيِّعَ الدين. وعمود الدين «الصلاة»، فإذا أقمناها حق الإقامة نهتنا عن كل منكر وفاحشة بإذن الله، ومن حفظ الصلاة فهو لما سواها أحفظ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولاحظ في الإسلام لمن ترك «الصلاة» كما قال عمر رضي الله عنه .

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه عن الصلوات الخمس مع الجماعة أنها من سنن الهدى، وأننا لو تركناها لضللنا وخسرنا، فقال: «لو تركتم سنة نبيكم لضللتم»[٢]؛ عياذًا بالله من الضلال والكفر والخسران؛ قال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ [الروم: ٤١].

وقفة مع السلف:

ونتساءل ما الذي كان سببًا في استقامة السلف رضي الله عنهم على الطاعات، وثباتهم على الحق وفي المحن والفتن بعد فضل الله؟ فالواجب نسوقه إليك واقعًا، وقبل الأمثلة نذكّرك بحديث ربيعة بن

---

(١) انظر: صحيح الجامع برقم ٢٥٧٣، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٣٥٨.

(٢) رواه مسلم. انظر: مختصر مسلم بتحقيق الألباني – رحمه الله – برقم: ٣٢٣.

كعب الأسلمي عندما سأل رسول الله مرافقته في الجنة فقال رسول الله ﷺ: «**أعنِّي على نفسك بكثرة السجود**»(١)؛ فبيَّنَ أن هذا العمل – وهو كثرة السجود – سببٌ لدخول الجنة ... ودخولها من أعظم ثمار الاستقامة:

١- فهذا سعيد بن المسيَّب تأتيه ابنته في مرض موته، وتبكي عليه فيقول: لا تبكي عليَّ، فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام في الصف الأول منذ أربعين سنة**!!**

٢- وهذا الأعمش كذلك ما ترك الصف الأول أربعين عامًا**!!**

٣- وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير يدعو الله أن يرزقه الميتة الحسنة، فيُسأل عنها، فيقول: أن يموت العبد وهو ساجد. فكان له ما تمنى؛ فتوفاه الله وهو ساجد، «وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(٢).

ولذا كان أشد ما يخافون منه تركها: «فما كان الصحابة يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة»(٣).

وكذلك تضييعها – أي تأخيرها عن وقتها – قال تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم: ٥٩].

وليس معنى أضاعوها أي تركوها؛ وإنما أخروها عن وقتها، فلا

---

(١) رواه مسلم، وانظر: «الصحيح المسند في فضائل الأعمال» لأبي عبد الله المغربي. ط دار ابن عفان.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، انظر: مختصر مسلم برقم ٢٩٨.

(٣) قاله عبد الله بن شقيق، وانظر: الصلاة لابن القيم – رحمه الله –.

يصلي الفجر إلا بعد طلوع الشمس، ولا الظهر إلا بعد خروج وقتها ... إلخ. كما فهمه ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال ابن مسعود – رضي الله عنه: «الغيّ واد في جهنم شديد حره، بعيد قعره، خبيث طعمه»[1].

إذًا إقامتها بأركانها، وشروطها، وواجباتها وخشوعها، والطمأنينة فيها والحرص على سننها؛ مما يعين على الاستقامة ويحفظ – بإذن الله – العبد من الوقوع في المعاصي؛ لأنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر.

ولهذا فقلبه معلَّق بالمسجد، وإن كان جسده خارج المسجد في المنزل، والشارع، والمكتب، والسوق ... وغيره؛ لكن قلبه موصول بالله – عز وجل – ومعلَّق بالمسجد وبذكر الله وطاعته؛ فلا يمكن أن تسوِّل له نفسه الوقوع في الحرام؛ لأن قلبه المعلّق في المسجد، الموصول بالله، المليء بالإيمان، يمنعه من تعمد المعصية، وفي الصحيحين: «**سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله**». ومنهم: «**ورجل قلبه معلق بالمساجد**». نسأل الله من فضله.

وحتى لو وقع في شيء من القاذورات رجع بسرعة وتاب وأناب، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وإذا أردت أن تعرف قدرك ومكانك في الآخرة، فانظر كيف

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ص١٣٤، ١٣٥.

أنت في صلاتك؟

قال ابن القيم: «للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه؛ فمن قام بحق الموقف الأول هوَّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف و لم يوفّ حقه، شدد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ [الإنسان: ٢٦، ٢٧]».

خامسًا: النوافل:

فالنوافل – بإذن الله – من أهم ما يحفظ به العبد دينه، ويساعد على مواصلة العمل واستمراريته والمداومة عليه؛ فهي – في الحقيقة – السور المحكم، والجدار المنيع الواقي، والحافظ بعد حفظ الله والإخلاص والمتابعة والفرائض؛ فهي أسوار تحيط بالفرائض، وعقبات أمام الشيطان تحول بينه وبين المساس بالواجبات، فما أجملها من أسوار وسياجات ربانية، ويحفظ الله بها على العبد دينه وفرائضه.

إنها سبب لمحبة الله، ومن ثمّ هي سبب لاستقامة الجوارح كلها، وهي – أي النوافل – بأنواعها سبب لحصول محبة الله – عز وجل، وإذا أحب الله عبده أمر جبريل – عليه السلام – بمحبته، ثم يحبه أهل السماء، فيوضع له القبول في الأرض، ويحبه الناس، وإذا أحبه الله – عز وجل – وفقه للطاعة وسلوك صراطه والاستقامة على شرعه؛ وذلك بأن يرزقه الله استقامة في جميع جوارحه ويهديه لخير

الأعمال وأحسنها، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**». فيا له من فضل وأجر كبير ونعمة لا تقدر بثمن، فلا ينظر إلا بنور من الله، ولا يسمع ولا يتكلم ولا يتحرك إلا بنور من الله، فهو موفق بتوفيق الله، فهو لله وبالله — عز وجل.

«ومن قال بغير هذا التفسير للحديث فقد قال ببدعة وضلالة أهل الحلول والاتحاد»؛ لا ينظر للحرام، بل نظره مرضاة الرحمن من تلاوة وذكر وطلب علم ونحوه، ولا يسمع الحرام؛ بل سماعه للقرآن والحديث والعلم النافع والكلام الطيب، قال تعالى: ﴿**وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ [النور: ٢٦]، ولا تمتد يده للحرام؛ بل يده في كل خير سباقة؛ فينفق ويتصدق، ويساعد ويحمل عن الضعيف، وينفع المسلمين، ولا يمشي للحرام؛ بل خطواته لبيوت الله وحلق الذكر، والعلم وزيارة الأرحام والصالحين والعمرة ... إلخ.

فأي استقامة للجوارح أعظم من هذه؟ فما الطريق إليها؟ إنها محبة الله — عز وجل — وما السبيل لمحبة الله؟ إنها بأمور منها التقرب إليه بالنوافل، ومعلوم أن النوافل تجبر النقص وتسدّ الخلل في العبادات المفروضة يوم القيامة، يوم العرض على الله، يوم الحساب والجزاء، فإذا حصل في صلاة العبد المفروضة نقص أو خلل، نُظِرَ في

تطوعه ونوافله ليجبر بها النقص الحاصل، وكذلك في الصوم والحج والزكاة ونحوها[1].

فالنوافل عامل عظيم من عوامل الثبات على الدين والاستقامة على الشرع، والنوافل سبب كبير لحصول محبة الله، والنوافل طريق مهم لجبران النقص والخلل في الفرائض.

فالله الله بها والحرص عليها بجد وإخلاص ومتابعة للرسول ﷺ وبعد عن الغلو والتنطع الممنوع سواءً بصلاة أو صيام أو صدقة أو نسك أو تلاوة وغيرها.

ولذا قال ﷺ: «**أعنّي على نفسك بكثرة السجود**». وأقواله وأفعاله ﷺ وكذلك السلف الصالح من الصحب والأتباع وأئمة المسلمين كثيرة مشهورة معلومة في أهمية النوافل؛ بل ومطالعة يسيرة لكتب السير والتراجم «كالإصابة، وسير أعلام النبلاء، وصفة الصفوة»، وغيرها تبين لك حرصهم الشديد عليها.

وقد وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [الذاريات: ١٧-١٩].

إذا الليل أقبل كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع
لهم تحت الظلام وهم سجود أنين منه تنفرج الضلوع

---

(١) كما في حديث جبران النقص (انظروا هل لعبدي من تطوع). انظر: صحيح الجامع: ٢٥٧١، ٢٥٧٤.

وقال آخر:

يحيون ليلهم بطاعة ربهم بتلاوة وتضرع وسؤال
في الليل رهبان وعند لقائهم لعدوهم من أشجع الأبطال

ولهذا كان أبو مسلم الخولاني يقوم الليل ويجتهد في ذلك كثيرًا حتى إذا تعبت قدماه قال مخاطبًا نفسه: «والله لأزاحمن أصحاب محمد على أبواب الجنة، والله لا يسبقونا بعمل حتى يعلموا أنهم خلّفوا رجالًا».

سادسًا: الدعاء بثبات القلب على الطاعة:

قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال: ٢٤][(١)]. فيدعو الموفقُ ربَّه أن يثبته على دينه والتزام طاعته؛ فإن العبد له حالات؛ إما أن يقع في الذنب، أو يكون على طاعة؛ فالمذنب تجب عليه التوبة، والتوبة واجبة من كل ذنب وفي كل حين كما قرّر العلماء، والمحسن عليه أن يعيش بين الخوف والرجاء ويسأل الله القبول ثم يدعو الله أن يثبته على الدين.

وقد كان رسول الله ﷺ - وهو رسول الله المغفور له ما تقدم وتأخر من ذنبه، وسيّد المستقيمين - يدعو الله أن يثبت قلبه على الدين؛ فتارة يدعو ويقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[(٢)].

---

(١) انظر: الفوائد ص١١٨. وقال ابن عباس في تفسير الآية: «يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار»، وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ٤٧٠/١، وصححه الحاكم ٣٢٨/٢ ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: صحيح الجامع برقم ٧٩٨٧.

وتارة يقسم بذلك: «**لا ومقلّب القلوب**»[١]؛ لأنه يعلم أنه: «**لقلب ابن آدم أشد انقلابًا من القِدَرِ إذا استجمعت غليانًا**»[٢]، وكما تقدم، فالقلب ملك الأعضاء وسيدها، فإذا استقام القلب استقامت الجوارح، ولهذا في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات؛ فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه** – إلى أن قال – **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي: القلب**»؛ فصلاح القلب صلاح لبقية الأعضاء والجوارح، وفي الحديث إشارة مهمة إلى أن التقوى والورع المعينان على حصول الفرقان، والنور الذي يفرق فيه العبد بين الحق والباطل عند اشتباه الأمور واختلاطها إنما محلهما القلب؛ فالحلال معروف والحرام كذلك؛ ولكن هناك أمورًا مختلفٌ فيها أو فيها شبهة، فمن الذي يتقيها؟! ومن يتجنبها ولا يتساهل فيها ويحتاط لدينه! هو صاحب القلب السليم ... صاحب التقوى ... والتقوى محلها القلب، قال ﷺ: «**التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا**». وأشار إلى صدره، كما في صحيح مسلم.

نسأل الله أن يثبتنا على دينه، ويرزقنا القلب السليم النقي التقي الخفي، إنه سميع مجيب [٣].

---

(١) انظر: المشكاة برقم ٣٤٠٦.

(٢) انظر: صحيح الجامع برقم ٥١٤٧.

(٣) الكلام عن صلاح ملك الأعضاء وهو القلب يطول. ولهذا فلصاحب هذه السطور رسالة بعنوان «كيف تصلح قلبك؟» نسأل الله أن ترى النور قريبًا. وكذلك الدعاء مهم جدًا في صلاح القلب والجوارح ...وأعجز الناس من عجز عن الدعاء =

سابعًا: حفظ اللسان:

تقدم معنا في تعريف الاستقامة ذكر علامة إرشـادية ترشـد وتدل على الاستقامة، وهي حفظ اللسان من آفاته؛ فاللسان دليـل استقامة القلب، والقلب دليل استقامة وإيمان العبد.

كما تقدم أن القلب ملك الأعضاء وسيدها، وأنه إذا صـلح صلح الجسد كله، وبالتالي نجح يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]؛ فكذلك اللسان هو الترجمان لهذا القلـب؛ فالقلب ملك الجميع، واللسان أمير الأعضاء والجوارح، وهو ترجمان القلب للجوارح.

فليتأمل العبد هذا المشهد المثير، والموقـف الرهيـب، كيـف تخاطب الأعضاء اللسان وتذكره بالله كل صباح وتقول له: «اتـق الله فينا فإنما نحن بك، فإن اسـتقمت اسـتقمنا، وإن اعوججـت اعوججنا». وليأخذ من هذا المشهد الدرس والعظة والعـبرة، ولا يخون عهده مع ربه أولاً، ثم مع الأعضاء ثانيًا، فيطلق لسـانه ذات اليمين والشمال في اللغو، والغيبة، والنميمة، والكـذب علـى الله ورسوله، أو الكذب المحرم بين الناس، والسـخرية، والاسـتهزاء، والضحك المنهي عنه، والمراء والجـدل العقـيم غـير الشـرعي، والخصومة واللعن، والسباب، والمزاح المذموم، والغنـاء، والشـعر

= كما في الحديث الصحيح (صحيح الجامع ١٠٤٤) ولكن أين نحن من الدعاء المطلوب؟! ولماذا ندعو فلا نرى أثر ذلك؟! هذا ما أجبت في الرسالة المتواضعة «السهام المعطلة» فانظرها بورك فيك.

القبيح وإفشاء السر الذي لا يجوز ذكره، وإتيان النـــاس بـــوجهين ولسانين، والقول على الله بغير علم، والفتوى بجهل، والخـــوض في الباطل، والكلام فيما لا يعني، وفضول الكلام [1].

ولهذا جعل الله «البعد عن اللغو» من صفات المؤمنين من أعظم ركنين من أركان الإسلام بين الصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿ **قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُـمْ عَنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُـونَ * وَالَّـذِينَ هُـمْ لِلزَّكَـاةِ فَـاعِلُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١-٤].

وإطلاق العنان للسان له آثاره الوخيمة، وعواقبـه السـيئة في الدارين:

ولا تطلق لســانك في كــلام   يجر عليــك أحقــادًا وحوبًــا

فهذا من موانع الاستقامة وعقباتها؛ لأنه يولد الحقد، والبغضاء، والكراهية، والميوعة، والفسق، والمجون، والاســتهانة بـــالأعراض والفواحش، وهذه كلها عقبات في طريق الاستقامة سببها اللسان، وفي الآخرة يكون سببًا في كبِّ الناس في النار علـــى وجـــوههم ومناخرهم، كما قال ﷺ لمعاذ حين سأله: أونحن مؤاخـــذون بمـــا نقول؟! قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب النـــاس علـــى وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**».

[رواه الترمذي، انظر: الصحيحة ٣/١١٥]

---

(١) وانظر: «آفات اللسان في الكتاب والسنة» لسعيد بن وهف القحطاني، فقد ذكر ثلاثة وثلاثين آفة.

وهو أيضًا محرقة للحسنات والطاعات ومضيع لها!!

ويجعل صاحبه يوم القيامة مفلسًا من أعماله العظيمة التي هي كالجبال، من صلاة وصوم وزكاة وغيرها؛ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**أتدرون من المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: **المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته وقبل أن يُقضى عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**». [مختصر مسلم ١٨٣٦].

وقال ﷺ: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً هوي به في النار سبعين خريفًا**» [(١)].

إذًا فحفظه سبب للاستقامة، ولهذا في حديث معاذ المتقدم بيان أن حفظ اللسان ملاك الأعمال كلها يحفظها من الضياع ويعين على طريق الاستقامة كما تقدم، قال: «**ألا أخبرك ملاك ذلك كله؟ أمسك عليك هذا**». وأشار إلى لسانه، وهذا بعد أن ذكر له الإسلام والصلاة والجهاد والصوم والبر والأعمال الصالحة، قال له: «بملاك ذلك كله!».

---

(١) صحيح الجامع ١٦١٨، ورواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة. وانظر: الحديث الآخر في صحيح الجامع ١٦١٩.

فلنتق الله في هذا العضو الصغير في حجمه، الكبير في جرمه؛ ولكنه عظيم في نفعه للمستقيم على دين الله، الثابت على شرعه، وصدق ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**». كما في الصحيحين من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

تنبيه مهم:

يظن بعض الناس أن الخير كل الخير في الصمت مطلقًا ويقول: لا تتكلم فيما لا يعنيك! فاللسان خطره عظيم وجسيم؛ فالواجب والأولى ترك الكلام مطلقًا! حتى لو رأى المعاصي والمنكرات!!

ونقول: هذا فهم سقيم وورع فاسد، كورع من لا يكفّر إبليس ويقول: أكف لساني عن القول في شخص ما لا أعلم!! وهذا من أفسد الورع كما قال ابن الجوزي؛ فينبغي أن نتدبر قوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**». فليس لك الصمت مطلقًا؛ وإنما يجب عليك قول الخير والكف عن الشر، وتأمل قوله ﷺ: «**فليقل خيرًا**»؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي؛ فلا يجوز السكوت عن المنكر؛ بل يجب أن تنصح وتأمر وتنهى حسب الاستطاعة الشرعية التي رتبها النبي ﷺ بقوله: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**».

[مختصر مسلم (٣٤) عن أبي سعيد الخدري]

وهذا هو صمام الأمان للأمة كما في حديث السفينة المشهور، سفينة المجتمع: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها فكان الذي** [وفي رواية: **الذين**] **في أسفلها إذا استقوا من الماء فمروا على من فوقهم فتأذوا به،** [وفي رواية: **فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء، فيصيبون على الذين أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا. فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا**]، [وفي رواية: **ولم نمر على أصحابنا فنؤذيهم**]، **فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بد لي من الماء، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»[1].

فلا بدَّ من الأمر والنهي والدعوة إلى الله وقول الحق، ولهذا قيل: «الساكت عن الحق شيطان أخرس» وليس بحديث [2]، وكان

---

(١) رواه البخاري وغيره عن النعمان بن بشير، وانظر: صحيح الجامع ٥٨٣٢، والصحيحة ٦٩.

(٢) يرويه البعض عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم – ولكن ليس له أصل!

«من أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

والله يقول: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ فغيرهم خاسر بلا شك، وهم التاركون لفريضة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا نحتج بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ لأن خير الناس بعد رسول الله ﷺ فسَّر الآية وشرح معناها، فقال: «أيها الناس إنكم تقرؤون هذه

(١) انظر: صحيح الجامع برقم ١١٠٠، ولكن تأمل هذا الحديث العظيم، وكيف بين فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنهج الصحيح في النصح للولاة حتى للسلطان الجائر ... بقوله: (عند) ولم يقل: يشهر به على المنابر! أو يثير الناس عليه! إنما ينصح له عنده ولو أدى ذلك إلى قتله فيكون من خير الشهداء. وفي الحديث الآخر عن عياض بن غُنم: قال – صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أراد أن ينصح لذي سلطان في أمر، فلا بيده علانية ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان أدى الذي عليه له**». [رواه أحمد ٤٠٣/٣] [والحاكم ٢٩٠/٣] [وابن أبي عاصم في السنة بتحقيق الألباني وصححه برقم ١٠٩٦].

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز إمام أهل السنة في هذا العصر – رحمه الله –: «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفوضى، وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف: النصيحة فيما بينهم وبين السلطان، والكتابة إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجّه إلى الخير. وإنكار المنكر يكون من دون ذكر الفاعل، فينكر الزنى وينكر الخمر وينكر الربا من دون ذكر من فعله ... إلخ. كلامه رحمه الله.

وانظر: في حقوق الراعي والرعية ص٢٧. وبمثله قال الشيخ العلامة ابن عثيمين، والعلامة الألباني وغيرهما من علمائنا – رحمهم الله.

الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله – عز وجل – أن يعمهم بعقابه»[١]، وكذلك لا يحتج أحدهم بحديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي وحسنه: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»؛ بل هو حجة عليه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، كل هذه الأمور مما أوجبها الله علينا حسب الاستطاعة، فهي مما يعنينا ويهمنا[٢].

لهذا نقول: إن من وسائل الاستقامة الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه الشرعية وبالحكمة المرعية، وإذا تأملت نصوص الاستقامة في كتاب الله تجدها مرتبطة بالدعوة إلى الله والأمر والنهي، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣] كانت بعد قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت: ٣٠]... الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿**أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ**﴾ [الأعراف: ١٦٥] كانت بعد قوله

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٢ص١٠٣ ط دار الجيل ١٤١٠هـ.

(٢) أما حكم الدعوة والأمر بالمعروف والنهي وهل تجب على الأعيان أو وجوبًا كفائيًا، فهذا تفصيله في كتب الفقهاء – رحمهم الله – وأنصح برسالة سماحة الإمام الوالد الشيخ ابن باز – رحمه الله – الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة. وانظر: فتاوى إسلامية ٤/٢٦٦-٢٩٧. ورسالة الشيخ عبد العزيز الراجحي: «القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ط دار الجلالين.

تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] بآيات كما في سورة هود.

والخلاصة:

أن من آفات اللسان السكوت عن الحق وكتمان العلم لغير مصلحة شرعية راجحة، كما بينها أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — [في المجلد ٢٠ من الفتاوى ص٥٨-٦١]، وترك الدعوة إلى الله - عز وجل — على بصيرة وفهم وعلم وحكمة، كما أن الغيبة والنميمة وغيرها من آفات اللسان تمامًا [١]، قال ﷺ: «**من سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[٢].

---

(١) الكلام عن اللسان سلبًا وإيجابًا وأهميته واستخدامه في الشرع وتركه في المحظور من آفاته وأنواع آفات اللسان وحكم كل نوع منها وتفاصيله ومتى يجوز ومتى يحرم أو يكره؟ وعلاج ذلك وآثار اللسان في الدارين السلبية والإيجابية والنصوص الدالة على ذلك كله كثيرة جدًا نسأل الله أن يوفق لإخراجها في رسالة مستقلة، ونشير إلى أهم المصادر التي نحث عليها القارئ الكريم للاستفادة: «مختصر منهاج القاصدين»، «تهذيب موعظة المؤمنين»، «خطايا اللسان» لعادل الجطيلي، «الغيبة وآثارها» لحسين العوايشة، «وآفات اللسان» للمشوخي، وكذلك لسعيد بن وهف القحطاني جزى أصحابها خيرًا، وهذه المصادر لها وعليها وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم — صلى الله عليه وآله وسلم — ورائدنا الوحيان بفهم السلف الصالح، والله المستعان.

(٢) انظر: صحيح الجامع برقم ٦٢٨٤.

ثامنًا: الصبر وكثرة ذكر الله تعالى:

الصبر نصف الإيمان، والشكر نصفه الآخر، وصحَّ في الحديث: «**الإيمان الصبر والسماحة**»؛ فبالصبر تنال عظام الأمور:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال آخر:

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

فالصبر ملاك الأعمال كلها ولا يمكن للعبد أن يستقيم أبدًا دون صبر؛ فلا علم إلا بالصبر، ولا عمل إلا بالصبر، ولا دعوة إلا بالصبر؛ فالصبر ملاك العلم والعمل والدعوة، فهو ملاك الأمر كله كما ذكر ابن القيم – رحمه الله ، بل كما بيَّن المولى تعالى في سورة العصر بعد أن بين أن الناس كلهم في خسارة إلا من حقق هذه الأمور:

١- العلم الشرعي والإيمان: وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

٢- العمل الصالح بذلك.

٣- الدعوة إليه.

ثم قال بعد ذلك كله: وتواصوا بالصبر. قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ١-٣].

فالصبر ملاك ذلك كله، ولا يمكن الحصول على شيء منه إلا بالصبر بعد توفيق الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا** ﴾ [الإنسان: ١٢]. ولم يقل بما صلوا أو صاموا أو علموا؛ لأنه لا قيام لصلاة ولا صيام ولا ذكر، ولا انتهاء عن منكر وفاحشة إلا بالصبر، ولهذا كان جزاء الصابرين عظيمًا، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠].

وذكر الله الصبر في قرابة تسعين موضعًا من كتابه، كما قال الإمام أحمد. كل هذا دليل على أهميته العظمى، ولسنا في صدد بيان الصبر، وفضله وأنواعه، وكيف يكون، وأدلة ذلك، فإن هذا له موضع آخر؛ ولكنا قصدنا بيان أن الصبر من أهم الأمور المعينة على الأعمال وهو من أهم عوامل الثبات والاستقامة، ولا يمكن عمل شيء منها إلا بالصبر بعد فضل الله والإخلاص لله عز وجل.

ونقصد بالصبر أنواعه الثلاثة: الصبر على الطاعة، وعن المحارم، وعلى المصائب والأقدار، فهذه الأنواع الثلاثة من حققها فقد حقق الاستقامة المطلوبة شرعًا؛ ولهذا عندما أنزل الله الوحي والرسالة على نبيه محمد ﷺ ليعمل بها ويبلغها أمره بالصبر ... لماذا؟ لأنه لا يستطيع القيام بها بدون الصبر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤].

فلا يمكن أن يتخلص من شهواتهم وشبهاتهم إلا بالصبر على العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**﴾ [الكهف: ٢٨].

بل: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين» كما قال الفضيل، وابن تيمية – رحمهما الله ، ودليلهما قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤][1]. ثم الذكر الشرعي الصحيح ...

فذكر الله – عز وجل – من أهم ما يساعد على الصبر، ولهذا قال – بعد الوصية بالبر -: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الإنسان: ٢٥]؛ فهو مما يقوي الصبر ويدعمه؛ ففي الصباح والمساء، في كل وقت وحين ينبغي على المرء أن يكون ذاكرًا لله ذكرًا شرعيًا لا بدعيًا؛ قال تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٣٥] . ولما جاء عبد الله بن بسر للنبي ﷺ يقول: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فدلني على عمل أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**»[2]؛ فذكر الله الذكر الشرعي الصحيح، من أهم ما يثبت العبد ويعينه على الصبر والاستقامة على دين الله، قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى مبينًا أهمية الذكر، وأنه مما يعين على

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٧٢/٣.
(٢) رواه الإمام أحمد وغيره، انظر: «صحيح الكلم الطيب» للألباني برقم ٣، وانظر: صحيح الجامع ٧٧٠٠.

الثبات في مواطن البأس والشدة – قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – في «الوابل الصيب» أن للذكر مائة فائدة، ثم قال: ولو لم يكن في فضل الذكر إلا قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ لكفى ... وصدق - رحمه الله ؛ فإن معنى الآية كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما : اذكروني بطاعتي، أذكركم بمعونتي. وفي الصحيحين قال ﷺ: قال الله عز وجل: «**من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه** ...».

والذكر الشرعي يمنح صاحبه – بفضل الله – نورًا وطمأنينة وسعادة وراحة وقوة في القلب والبدن وانشراحًا في الصدر ... إلخ. والله الموفق.

وقفة مع آية من سورة الإنسان:

ويجدر بنا أن نذكر الآية السابقة التي حثت على الصبر بتمامها؛ لأنها – في نظري، والله أعلم – ذكرت أهم ما يعين الداعية على دعوته ويثبته على طاعة الله؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ [الإنسان: ٢٣: ٢٧].

فدلت الآيات أن على الداعية صاحب الأمانة وحامل الرسالة العظيمة، أن يتحلى بالصبر والذكر بمفهومه الشامل ذكر القلب واللسان والجوارح؛ فالصلاة والصوم والأعمال كلها ذكر، كما سمّى الله الصلاة والجمعة ذكرًا، وهكذا؛ فالعبادات إنما شرعت لإقامة ذكر الله، قال تعالى: ﴿**فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة: ٩].

وكذلك لا بد من قسط كاف لتربية نفسه لتحمل مشاق الدعوة؛ وذلك بالقيام؛ قيام الليل المعين على الطاعات والدعوة وشدائدها بعد عون الله، وكذلك قصر الأمر والتفكر في الآخرة ويوم القيامة وأهوالها، وما أعده الله للمستقيم، وما توعد به المنحرف، فهذه كلها عوامل تثبت وتعين الداعية إلى الله – عز وجل – في دعوته وطاعته؛ نسأل الله التوفيق والثبات.

كن كالصحابة في زهد وفي القوم هم ما لهم في الناس أشباه
عباد ليل إذا جن الظلام بهم كم عابد دمعه على الخد أجراه
وأسد غاب إذا نادى الجهاد هبوا إلى موت يستلقون رؤياه

تاسعًا: الصحبة الصالحة:

ولعلها من أعظم ما يعين بإذن الله – تعالى – على ما تقدم؛ فهي تذكّره بالله إذا نسي وتعينه إذا ذكر، وقل لي مَنْ تصاحب؟ أُخبرك مَنْ أنت!

عن المرء لا تسأل وسل عن فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال الشاعر:

أنت بالناس تقاس بالذي اخترت خليلاً
فاصحب الأخيار تعل وتنل ذكرًا جميلاً
صحبة الخامل تكسو من يواخيه خمولاً

ولهذا ذكر الله الكلب وهو كلب في القرآن لصحبته الصالحين (أصحاب الكهف)، وخير وأحسن من الشعر قوله ﷺ: «**الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»[(١)]. وقال ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا**»[(٢)].

وكان السلف يحرصون على هذه الصحبة أشد الحرص؛ بل إذا رأى أحدهم العلماء الصالحين نشط في العبادة أيامًا عديدة؛ كما قال أحدهم: «كنتُ إذا رأيتُ محمد بن واسع ازددت نشاطًا في العبادة أسبوعًا»! والأمر واضح جدًا في الصحبة الصالحة، وأنها من أعظم الأمور المعينة على الاستقامة؛ لأن الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية[(٣)].

والصحبة الصالحة تعين المرء على الإخلاص، والصلاة والنوافل، والصبر، والذكر، وحفظ اللسان، والعلم، وهي تذكرك بالله وتساعدك على الطاعة والبر والصلة، ولهذا صحَّ عنه ﷺ: «**المؤمن مرآة أخيه**»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي وحسنه رقم ٢٣٧٨ عن أبي هريرة، وأبو داود رقم ٤٨٣٣، وحسنه الألباني في الصحيحة ٩٢٧.

(٢) سنن أبي داود ٤٨٣٢، والترمذي ٢٣٩٧ وحسنه.

(٣) كما صح في الحديث وقد تقدم تخريجه.

(١) انظر: صحيح الجامع برقم ٦٦٥٥.

ولكن لا بد لها من شروط، ولا بد لاختيار الصاحب والجليس من مواصفات شرعية؛ ليتحقق لك ذلك كله أو جلّه، ثم بعد ذلك لا بد من مراعاة حقوق وآداب الأخوة لتستمر وتدوم، وتكون على منهاج النبوة والسلف الصالح.

وذكر شروط الصحبة وصفات الصاحب وحقوق وواجبات الأخوة وبيان آفات الجلساء، حتى بعض الصالحين، وما يحدث من تزيين بعضهم لبعض، أو مجاملة بعضهم للآخر، وعدم حصول النصح والتذكير بالله، وإنما تكون صحبة مؤانسة ومؤاكلة ومشاربة كما يحصل كثيرًا؛ فلا ينتفع المرء بصحبته، وإن ظهر عليهم علامات الصالحين، ولا ترى فيه زيادة علم ودين وإيمان إلا قليلاً، ولو سار معهم سنين.

أقول: ذكر ذلك كله يطول شرحه، وأنصح إخواني بقراءة ما كتبه أهل العلم في ذلك كابن تيمية في الفتاوى، وتلميذه ابن القيم وغيرهم من الأئمة، وأرشد المبتدئ ببعض الرسائل الميسرة، ومن أجملها — فيما أعلم - رسالة الشيخ/ عبد الله آل جار الله — رحمه الله: «الأخوة في الله»؛ فقد جمعها من عدة رسائل ولخص بعضها؛ ففيها فوائد جمة ينفع الله بها بإذنه، مَنْ قرأها بصدق وإخلاص وتجرد، وحرص على العمل بها!

وأختم هذه الفقرة بما هو خير، وهو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله ﷺ: «**مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل**

المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه ريحًا خبيثة»[١].

تعقيب وتنبيه مهم:

لعل القارئ الكريم حين يقرأ حقوق الأخوة، وصفات الجليس الصالح الذي يختاره يظنها حقوقًا لأصحابه فقط، ويهمل حقوق المسلمين العامة المطلوبة منه لكل مسلم مؤمن، فالحقوق العامة: كالسلام، والتبسم، والزيارة، والتشميت، والعيادة، والتعزية ... إلخ. كل هذه الحقوق ينبغي علينا الحرص على أدائها لكل مسلم مؤمن موحد من أهل السنة والجماعة فنسلم عليه، ونبش ونهش على وجهه، ونبتسم في وجه إخواننا ونعاملهم خيرًا، قال رسول الله ﷺ: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فله ما لنا وعليه ما علينا**»[٢].

فلا نجعل هذه الحقوق والواجبات والسنن خاصة بمن نعرف فقط أو نصاحب أو نجالس، ولا نحكره على جماعة معينة، أو حزب أو هيئة كما يصنع مرضى العقول والقلوب ممن أعمتهم الأهواء والحزبيات، فلا يسلم إلا على أصحابه فقط! وإذا رأى من يخالفه في مسألة اجتهادية أو ممن هو خارج حزبه أو جماعته لم يسلم عليه!!

---

(١) الحديث في صحيح البخاري عن أبي موسى – رضي الله عنه، وانظر: صحيح الجامع برقم ٥٨٢٩، والمشكاة ٥٠١٠.

(٢) رواه البخاري والنسائي عن أنس بلفظ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»، وانظر: صحيح الجامع برقم ٦٣٥٠.

نسأل الله السلامة والعافية من الجهل والهوى، وما يقع فيه بعض العوام من عدم السلام والعافية من الجهل والهوى، وما يقع فيه بعض العوام من عدم السلام إلا على من يعرفه أو من قبيلته فقط، ويترك السلام على إخوانه المسلمين؛ لأنه من الفقراء أو العمالة أو نحو ذلك!! وكذلك إهمال حقوق الجيران وعدم دعوهم؛ لأهم فقراء ولا يدعي للولائم إلا الأغنياء!! إلخ.

بل كل مسلم – من الموحدين – يجب علينا أن نعامله معاملة شرعية كما أراد الله، ولا نفرق المسلمين ونجعلهم شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون، فإنه مع الأسف وجد من شباب المسلمين اليوم – جهلاً منهم هداهم الله أو تكاسلاً وإهمالاً – تقصيرٌ في هذه الأمور؛ فلا يُسلّم إلا على أصحابه وجلسائه، ولا يزور غيرهم مع أن جاره، وزميله، وقريبه، وغيرهم من المسلمين الموحدين لهم حقوق عليه كثيرة؛ فيجب التنبه لهذا، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه؛ فلا إفراط ولا تفريط، نسأل الله أن يرزقنا الوسطية في كل أمورنا، والاستقامة في كل شؤوننا، إنه سميع مجيب.

عاشرًا: الحذر من مثبطات ومعوقات الاستقامة:

فهناك أمور كثيرة تعيق العبد وتؤخره وتبعده عن الاستقامة، فيجب الحذر منها من باب:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الخير من الشر يقع

وخير منه قول حذيفة ﷺ ، كما في الصحيحين: «كان الناس

يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني».

والمعوقات التي تصد المرء عن الدين والاستقامة أو تضعفه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها وشرحها؛ فهي تحتاج إلى رسالة مستقلة، ولكني أنبه إلى أهمها وأخطرها وما يجمعها:

١- الشرك بجميع صوره وأنواعه؛ سواء الشرك الأكبر أو الأصغر؛ فهذان أعظم المعوقات عن الهداية والاستقامة، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الزمر: ٦٥]، ومنه دعاء غير الله والاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله أو بعد موته والذبح والنذر له والطواف حول القبور والاستنجاد بأصحابها وغير ذلك مما يطول شرحه ... فهذا كله شرك أكبر يصد العبد ويحجبه عن التوحيد والاستقامة ... فلا بد من تجريد التوحيد لله، ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ [الجن: ١٨]. وأنصح بقراءة رسالة: «نواقض الإسلام وقوادح في العقيدة» لسماحة الشيخ ابن باز رحمة الله عليه.

٢- المعاصي كبيرها وصغيرها مع الإصرار، فإن المعصية حل سخط الله، ومتى اجتمعت على صاحبها أهلكته، كما صحت بذلك الأحاديث، وأنصح بكتاب «الداء والدواء» لابن القيم، فقد بين – رحمه الله – خطورة المعاصي، وأثرها العظيم على استقامة الفرد.

٣- الشبهات والبدع وفتح الباب والعقل والسمع لها، والتنقل من شبهة وبدعة إلى أخرى ... ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**﴾ [آل عمران: ٧]، وصدق شيخ الإسلام – رحمه الله – حين نصح تلميذه ابن القيم، فقال: «اجعل قلبك كالزجاجة تمر عليها الشبهة ولا تدخلها ولا تجعلها كالإسفنجة كلما مر عليها شبهة أشربها».

٤- اتباع الهوى ... وصدق الله: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية: ٢٣].

٥- الإعراض عن الذكر والقرآن ومجالس العلم والإيمان، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢١، ٢٢].

وانظر تعليق ابن القيم عليها في «الفوائد» ص٢١٩ فهو مفيد ومهم، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**﴾ [السجدة: ٢٢]، ويقول تعالى: ﴿**فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾ [الكهف: ٥٧].

٦- مجالس الغفلة واللهو المحرم والمعصية، وأصحاب السوء، والرجل على دين خليله.

٧- النفس الأمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ [يوسف: ٥٣]. فعلى العبد أن يجاهدها لتكون لوامة، ثم مطمئنة بإذن الله.

٨- الشيطان وأعوانه من الإنس والجن؛ قال تعالى: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٦٩].

٩-١٠-١١-١٢-١٣- المال، والولد، والزوج، والمنصب، والدنيا عمومًا إذا شغلت العبد عن طاعة الله وصرفته عن عبادة الله وفتنته عن دين الله، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون: ٩].

١٤- النظر المحرم كالمجلات الساقطة، والأفلام والقنوات الفضائية بل الفضائحية! وكذلك السماع المحرم للأغاني الماجنة وغيرها! فكل هذا مما يصدّ عن دين الله وطاعته ... وغيرها كثير، والأدلة على ما تقدم أكثر؛ ولولا خشية الإطالة لذكرتُ شيئًا من ذلك بالتفصيل والله المستعان [١]، وصدق ابن القيم حيث قال- بعد

(١) هذه بعض الوسائل المعينة على الاستقامة وإلا فغيرها كثير ... إذ يستطيع طالب العلم المتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على فهم السلف الصالح - أن يجد =

بيانه لمعنى الصراط المستقيم، وأن من ثبت عليه في الدنيا نجا يوم القيامة ومر عليه سريعًا، قال - رحمه الله: «ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذلك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه؛ فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت: ٤٦]. [المدارج ١/١٦]».

* * *

= ـــــــــــــــ

الكثير منها ... ويجمعها قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾، ثم إني لما انتهيت من الصف الأخير وأثناء مراجعتي النهائية وقع في يدي رسالة بعنوان: «معوقات الهداية» للأخ/ صالح العصيمي التميمي، ط المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد بالسلي بالرياض، ذكر فيها إحدى وثلاثين معوقًا من معوقات الهداية، فلتنظر فهي مفيدة — إن شاء الله.

الخاتمة

(نسأل الله حسنها)

وهكذا أخي الحبيب ... أختي المسلمة:

رأينا ما للاستقامة من أهمية قصوى، وفائدة عظمى في حياة الفرد والأمة، هي: آثارها الحميدة في الدارين، وما هي عقوبة تاركها أو المعرض عنها في الدنيا والآخرة، وكيف فَقِهَ السلف ذلك جيدًا فقهًا نظريًا في تعريفاهم، وعمليًا في تطبيقهم لذلك في واقع حياهم العلمية، والعملية، والدعوية، والجهادية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها، ثم كان الجواب المبين للسؤال الكبير.

كيف أستقيم؟!

وذلك بالإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، والعلم الشرعي، والتدبر في كتاب الله، والنظر في ملكوته ومخلوقاته، ثم العمل الصالح من محافظة على الطاعات وحرص على النوافل، وسؤال الله، والتضرع إليه، واللجوء إليه أن يوفقك لذلك كله، وأن يثبتك على صراطه المستقيم، مع كثرة ذكره في كل حين، وكذلك ترك المنهيات والمخالفات التي تنقص أو تؤثر على الاستقامة كإطلاق العنان للسان وغيره، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من أعظم الوسائل للثبات، ثم ذكرنا ما يعين على ذلك كله وهو الصحبة الصالحة التي تذكرك إذا نسيت وتعينك إذا ذكرتَ، ثم ملاك ذلك كله الصبر بأنواعه الثلاثة.

وبهذا تكون قد قطعت شوطًا كبيرًا معينًا بـإذن الله لـك في طريق التزامك بشرع الله واستقامتك عليه، فـاحرص – أخـي – على الاتصاف بها، والتحلي بها، وأن تكون من السباقين المبـادرين إليها.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتـك وارزقهـا الاستقامة على دينك والثبات عليه حتى الممات.

اللهم أحينا سعداء، وأمتنا شهداء، واجعلنا لحـوض حبيبنـا وسيدنا محمد ﷺ من الواردين، ولكأسه من الشاربين، ولا تحرمنـا لذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم [1].

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أسـتغفرك وأتوب إليك.

---

(١) وكان الفراغ في المراجعة النهائية قبيل فجر يوم الجمعة الموافق الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول لعام عشرين وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى ﷺ، ثم روجعت قبيل دفعها للمطبعة قبيل فجر الثلاثاء الموافق للسادس عشر من شهر ذي القعدة من العام نفسه ... والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

الفهرس

